الترغيب فى قيام الليل من القرآن الكريم

الترغيب فى قيام الليل
فى القرآن الكريم

وأقوال السادة أئمة التفسير فى شرح الآيات المرغبة فيه

الآية الأولى :

قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ (١)

قال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى بيان معنى الآيتين :

[تتنحىّ جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله الذين وصفت صفتهم وترتفع عن مضاجعهم التى يضطجعون لمنامهم ولا ينامون ﴿ **يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ فى عفوه عنهم وتفضله عليهم برحمته ومغفرته ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ فى سبيل الله ويؤدون من حقوق الله التى أوجبها عليهم فيه .

و ﴿ **تتجافى** ﴾ : تتفاعل ، من الجفاء ، والجفاء هو النُّبُوّ كما قال فى الرجز :

وصَـــاحبى ذاتُ هِـــبــابٍ دَمْشَقُ
وابنُ ملاطٍ مـــتــجــافٍ أرفقُ (٢)

يعنى أن كرمها سجية عن ابن ملاط

وإنما وصفهم الله تعالى ذكره بتجافى جنوبهم عن المضاجع لتركهم الاضطجاع للنوم شغلا بالصلاة .

(١) السجدة الآيتان رقم ١٦ ، ١٧ .

(٢) البيت للزفيان ، ابنا ملاطى البعير : هما العضدان وقيل كتفاه . (الشيخ محمود شاكر)

قال أبو عبيدة فى « مجاز القرآن » : أى ترتفع عنها وتتنحى لأنه يصلون بالليل[1] [2] .

قال القرطبى رحمه الله :

[« المضاجع جمع مضجع وهى مواضع النوم ، ويحتمل عن وقت الاضطجاع ولكنه مجاز والحقيقة أولى .

قال الزجاج والرُّمانىّ : التجافى : التنحى إلى جهة فوق ، وكذلك هو فى الصفح عَن المخطىء فى سبّ ونحوه والجنوب جمع جنب][3]

« واختلف أهل التأويل فى الصلاة التى وصفهم الله جل ثناؤه أن جنوبهم تتجافى لها عن المضطجع .

فقال أنس وقتادة وعكرمة وأبو حازم ومحمد بن المنكدر : هى الصلاة بين المغرب والعشاء »[4] .

● قال القرطبى : « جاءت آثار حسان فى فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « صلاة الأوّابين الخلوة التى بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة » وإن من الدعاء المستجاب الذى لا يرد الدعاء بين المغرب والعشاء »[5] أهـ

● وقال عطاء وأبو سلمة والحسن : عنى بها صلاة العتمة .

● وقال آخرون : لانتظار العتمة

---

(1) (الورقة ١٩٥ ـ ب) .

(2) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٩٩ ـ ١٠٧ .

(3) تفسير القرطبى ص ٥١٨١ ـ ٥١٨٢ كتاب الشعب .

(4) إرشاد العقل السليم المسمى « تفسير أبى السعود » جـ ٤ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(5) القرطبى ص ٥١٨٣ ـ ٥١٨٤ .

عن أنس بن مالك عن هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة »[1] .

● وقال آخرون : عُنِى بها قيام الليل قاله الجمهور[2] من المفسرين وعليه أكثر الناس وهو الذى فيه المدح

وهو قول مجاهد والأوزاعى ومالك بن أنس والحسن بن أبى الحسن وأبى العالية ويدل عليه قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفى

● فعن الحسن فى هذه الآية ﴿ تتجافى ... ﴾ قال : قيام الليل .

● وقال ابن زيد : هؤلاء المتهجدون لصلاة الليل .

وقال مجاهد : قوم يصلون بالليل أورد ذلك الطبرى[3]

● وقال آخرون : إنما هذه صفة قوم لا تخلوا ألسنتهم عن ذكر الله إما فى صلاة وإما فى غير صلاة قاله ابن عباس والضحّاك[4] .

● وقال آخرون : تجافى الجُنب هو أن يصلى الرجل العشاء والصبح فى جماعة وهم الضحاك وأبو الدرداء وعبادة[4] .

● قال الإمام القرطبى عن القول الأخير :

« وهذا قول حسن وهو يجمع الأقوال بالمعنى وذلك أن منتظر العشاء إلى أن يصليها فى صلاة وذكر لله عز وجل كما قال النبى ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الترمذى جـ ٤ ص ١٦١ وقال حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره « سنده جيد » انظر الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعى ص ١١٩ .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥١٨٢ .

(٣) انظر الطبرى جـ ٢١ ص ٩٩ ـ ١٠٧ ، القرطبى ص ٥١٨٢ .

(٤) ، (٤) القرطبى ص ٥١٨٢ ، ٥١٨٣ .

يؤخر صلاة العشاء الآخرة إلى نحو ثلث الليل ، قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أى وقت شاء الإنسان فجاء انتظار وقت شاقا غريبا ، ومصلى الصبح جماعة لا سيما فى أول الوقت كما كان عليه السلام يصليها ، والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة فى أول الوقت يقوم سحرا يتوضأ ويصلى ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر فقد حصل التجافى أول الليل وآخره » أ هـ[1] .

قال الإمام الطبرى جامعا بين الأقوال ومرغبا فى قيام الليل :

« والصواب من ذلك أن يقال :

إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلا منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفا وطمعا وذلك بنبو جنوبهم عن المضاجع ليلا ، لأن المعروف من وصف الواصف رجلا بأن جنبه عن مضجعه ، إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم فى وقت منام الناس المعروف ، وذلك الليل دون النهار ، وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك يدل على ذلك قول عبد الله بن رواحة الأنصارى فى صفة نبى الله ﷺ :

يبيتُ يجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله تعالى ذكره لم يخصص فى وصفه هؤلاء القوم بالذى وصفهم به ، من جفاء جنوبهم عن مضاجعهم من أحوال الليل وأوقاته حالا ووقتا دون وقت ، كان واجبا أن يكون ذلك على كلّ آناء الليل وأوقاته ، وإذا كان كذلك كان من صلّى ما بين المغرب والعشاء أو انتظر العشاء الآخرة أو قام الليل أو بعض أو ذكر الله فى ساعات الليل ، أو صلى العتمة ممن دخل فى ظاهر قوله ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ لأن جنبه قد جفا عن مضجعه فى

(١) القرطبى ص ٥١٨٣ .

الحال التى قام فيها للصلاة قائما صلى أو ذكر الله أو قاعدا بعد أن لا يكون مضطجعا وهو على القيام أو القعود قادر.

غير أن الأمر وإن كان كذلك فإن توجيه الكلام إلى أنه معنى به قيام الليل أعجب إلىّ لأن ذلك أظهر معانيه ، والأغلب على ظاهر الكلام ».

﴿ خوفا وطمعا ﴾

قال قتادة : خوفا من عذاب الله وطمعا فى رحمة الله ومما رزقناهم ينفقون فى طاعة الله وفى سبيله.

● عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ وهو يقصص فى قصصه ـ وهو يذكر رسول الله ﷺ ـ إن أخاً لكم لا يقول الرَّفَث يعنى بذلك عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أنّ ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذاّ استثقلت بالمشركين المضاجع [(١)]

لطيفة للقشيرى : فى قوله ﴿ تتجافى جنوبهم ... ﴾

قال رحمه الله : « فى الظاهر : عن الفراش قياما بحق العبادة والجهد والتهجد

وفى الباطن : تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال ورؤية قدر النفس وتوهم المقام ، فإن ذلك بجملته حجاب عن الحقيقة وهو للعبد سم قاتل ، فلا

(١) رواه البخارى فى كتاب التهجد ، باب فضل من تعار من الليل فصلى.

يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم ، ويفارقون مآلفهم ، ويهجرون فى الله معارفهم .

والليل زمان الأحباب ، قال تعالى ﴿ **لتسكنوا فيه** ﴾ يعنى عن كلّ شغل وحديث سوى حديث محبوبكم ... والنهار زمان أهل الدنيا قال تعالى ﴿ **وجعلنا النهار معاشا** ﴾ أولئك قال لهم ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض** ﴾ ، إذا ناجيتمونا فى ركعتين فى الجمعة فعودوا إلى متجركم واشتغلوا بحرفتكم

وأما الأحباب فالليل لهم ، إن كانوا فى أنس القربة فليلهم أقصر من لحظة كما قالوا

ليلة كاد يلتقى طرفاها قصرا وهى ليلة الميعاد

﴿ **ويدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ خوفاً من العذاب وطمعا فى الثواب ، خوفا من الحجاب عن الله فى الآخرة وطمعا فى النظر إلى وجهه الكريم ، خوفا من المكر وطمعا فى عفو الله .

﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ قال القشيرى : فالعبد إنما يتجر فى البضاعة التى يودعها لديه سيده »[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾.

● قال الطبرى : رحمه الله :

« فلا تعلم نفس ذى نفس[2] ما أخفى الله لهؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم فى هاتين الآيتين ، مما تقربه أعينهم فى جنانه يوم القيامة ثوابا لهم على

---

(١) لطائف الإشارات لعبد الكريم القشيرى جـ ٥ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ . طبع دار الكاتب العربى .

(٢) قال القاسمى فى محاسن التأويل جـ ٧ ص ١٣٢ : ﴿ فلا تعلم نفس ﴾ أى كل نفس من النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم فإن النكرة فى سياق النفى تعم ، والفاء سببيه » .

أعمالهم التى كانوا فى الدنيا يعملون »

● قال القرطبي :

« وفى معنى هذه الآية قال النبى ﷺ : « **قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** » ثم قرأ هذه الآية ﴿ **تتجافى جنوبهم ...** ﴾ إلى قوله ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[1]

قال ابن عباس : الأمر فى هذا أجل وأعظم من أن يعرف تفسيره .

قال القرطبي : « قلت : وهذه الكرامة إنما هى لأعلى أهل الجنة منزلا كما جاء مبينا فى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة رفعه إلى رسول الله ﷺ

قال « سأل موسى عليه السلام ربه فقال يارب : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب ، فيقول : لك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت ربِّ فيقول : لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب

قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى ، وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر »[2] ـ قال ـ ومصداقه من كتاب الله قوله تعالى ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « **يقول الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على**

---

(١) القرطبي ص ٥١٨٦ ـ ٥١٨٧ مخرج فى الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدى .
(٢) رواه الإمام مسلم والترمذى وأحمد فى مسنده عن المغيرة بن شعبة .

قلب بشر ذُخرًا بَلة[1] ما أطلعكم عليه ـ ثم قرا ـ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾

وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى .

وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت

قال محمد بن كعب القرظي : أخفوا لله عملا وأخفى لهم ثوابا فلو كانوا قدموا عليه قد قرت تلك الأعين .

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله :

[تأمل كيف قَابَلَ ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذى أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم ، حين يقوموا إلى صلاة الليل بِقُرَة الأعين فى الجنة][2]

لطيفة للقشيرى :

قال القشيرى فى قوله تعالى ﴿ **فلا تعلم نفس** ... ﴾

« إنما تقر عينك برؤية من تحبه ، أو ما تحبه ، فطالب قلبك وراع حالك ، فيحصل اليوم سرورك وكذلك غدا ، وعلى ذلك تحشر ، فمن كان بحالةٍ لقى الله بها

السباق السباق قولا وفعلا
حذروا النفس حسرة المسبوقِ

---

(١) بَلْهَ من أسماء الأفعال وهى مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها « دع عنكم ما أعلمكم عليه فالذى لم يطلعكم عليه أعظم وكأنه أضرب عنه استقلالا له فى جنب مالم يطلع عليه شرح النووى .

(٢) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص ٢٧٨ مطبعة المدنى .

ثم قال رحمه الله فى قوله تعالى ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون** ﴾ : أفمن كان فى حال الوصال يجر أذياله كمن هو فى مذلة الفراق يقاس وباله

أفمن كان فى رَوْح القربة ونسيم الزلفة كمن هو فى هول العقوبة يعانى مشقة الكلفة .

أفمن هو فى رَوْح إقبالنا عليه كمن هو فى محنة إعراضنا عنه ؟

أفمن بقى معنا كمن بقى عنّا ؟

أفمن هو فى نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو فى ليالى الكفران ووحشة العصيان

أفمن أُيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموس العرفان كمن ربط بالخذلان ووسم بالحرمان .. لا يستويان ولا يلتقيان .. هذا فى أعلى الفضائل . وهذا فى سوء الرذائل »(٢) أ هـ .

قال الشيخ سيد قطب فى الظلال :

فى قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ... ﴾

مشهدهم المصور لهيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية فى لمحة واحدة فى التعبير العجيب الذى يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب ، إنهم يقومون لصلاة الليل .. صلاة العشاء الآخرة ـ الوتر ويتهجدون بالصلاة ، ودعاء الله ، ولكن التعبير القرآنى يعبر عن هذا القيام بطريقة أخرى ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ فيرسم صورة المضاجع فى الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام ولكن هذه الجنوب لا تستجيب ، وإن كانت تبذل جهدا فى مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة ، لأن لها شغلا عن المضاجع اللينة ، والرقاد اللذيذ ، شغلا بربها ، شغلا بالوقوف فى حضرته ، وبالتوجه إليه فى خشية ، وفى

---

(١) لطائف الإشارات ص ١٤٤ ، ١٧١ .

طمع ، ينازعها الخوف والرجاء .. الخوف من عذاب الله والرجاء فى رحمته ، الخوف من غضبه والطمع فى رضاه ، والخوف من معصيته والطمع فى توفيقه .

والتعبير يصور هذه المشاعر المرتجفة فى الضمير بلمسة واحدة حتى لكأنها مجسمة ملموسة ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ وهُمْ إلى جانب هذه الحساسية المرهفة والصلاة الخاشعة والدعاء الحار يؤدون واجبهم للجماعة المسلمة طاعة لله وزكاة .. ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾

هذه الصورة المشرقة الوضيئة الشفيفة ترافقها صورة للجزاء الرفيع الخاص الفريد ... الجزاء الذى تتجلى فيه ظلال الرعاية الخاصة ، والإعزاز الذاتى والإكرام الإلهى والحفاوة الربانية بهذه النفوس » أ هـ[1] .

ثم قال رحمه الله تحت قوله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى من قرة أعين ... ﴾ :

تعبير عجيب يشى بحفاوة الله سبحانه بالقوم ، وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور الذى لا يطلع عليه أحد سواه ، والذى يظل عنده خاصة مستورا حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه عند لقياه ، وإنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم فى حضرة الله .

يالله .. كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ، وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله .

ومَنْ هُمْ ـ كائنا ما كان عملهم وعبادتهم وطاعتهم وتطلعهم حتى يتولى الله جل جلاله إعداد ما يدّخره لهم من جزاء فى عناية ورعاية وود واحتفال لولا أنه فضل الله الكريم المنّان[2]

---

(١) فى ظلال القرآن ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) الظلال ص ١٠٧ .

الآيــــة الثانيــــة

قال تعالى :

﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون﴾[1] .

- قال الحافظ ابن حجر : « قال الخليل : هجع يهجع هجوعا وهو النوم بالليل دون النهار »[2] .

- وقال القرطبي : « الهجوع : النوم ليلا ، والتَّهجاع : النومة الخفيفة قال أبو قيس بن الأَسْلَتْ :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

وقال عمرو بن معدى كرب يتشوق إلى أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصمة :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الداعى السميع

يؤرِّقنى وأصحابى هجوع

قال الجوهرى : هجع يَهْجَع هُجوعا ، وهَبَغَ يَهْبَغُ هُبوغا بالعين المعجمة إذا نام .

- واختُلِف فى « ما »

- فقيل « ما » صلة زائدة قاله إبراهيم النخعى[3]

والتقدير : كانوا قليلا من الليل يهجعون ، أى ينامون قليلا من الليل ويصلون أكثره .

- وقيل « ما » للنفى وهو نفى النوم عنهم البتة

---

(١) الذاريات الآيات ١٧ ، ١٨ .

(٢) فتح البارى ـ كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل جـ ٣ ص ٣٦ .

(٣) القرطبى ص ٦٢٠٥ ـ ٦٢٠٦ .

« ولا مساغ لجعل ما نافية لما أن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها تقول زيدًا لم أضرب ولا تقول زيدًا ما ضربت[1] .

● قال الأحنف بن قيس : « كانوا لا ينامون إلا قليلا ـ لست من أهل هذه الآية »

وقال أيضاً رحمه الله « عرضت عملى على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا لا نبلغ أعمالهم ﴿**كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**﴾[2] .

● روى محمد بن نصر المروزى رحمه الله عن أنس أن قوله تعالى ﴿**كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**﴾ نزلت فيمن كان يصلى بين المغرب والعشاء »[3] وقال : ممن كان يصلى ما بين المغرب والعشاء من الصحابة : ابن مسعود وابن عمرو وسلمان الفارسى وابن عمر وأنس فى ناس من الأنصار » أ هـ .

● وروى ابن جرير عن أنس القول السابق .

● وعن مطرف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

● وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله كابدوا قيام الليل .

● وعن الضحّاك : أن الوقف على قوله تعالى ﴿**كانوا قليلا**﴾ أى أن المحسنين كانوا قليلا ، ثم ابتدىء فقيل ﴿**من الليل ما يهجعون**﴾ و « ما » نافية أى لا يهجعون .

● قال ابن كثير رحمه الله : هذا القول فيه تعسف .

● قال ابن جرير رحمه الله : « وأولى الأقوال بالصحة فى تأويل ﴿**كانوا قليلا** ...﴾ قول من قال كانوا قليلا من الليل هجوعهم ، لأن الله وصفهم بذلك مدحا لهم وأثنى عليهم به ، فوصفهم بكثرة العمل وسهر الليل ومكابدته

---

(١) انظر الكشاف وتفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٠١ .

(٢) القرطبى ص ٦٢٠٨ .

(٣) سنده صحيح قال ذلك العراقى أنظر عون المعبود ٢٠٤/٤ طبع السلفية بالمدينة المنورة .

فيما يقربهم منه ، ويرضيه عنهم أولى وأشبه ممّن وصفهم من قلة العمل وكثرة النوم مع أن الذى ذكرنا هو أغلب المعانى على ظاهر التنزيل »

والقول الذى رجحه الطبرى هو قول الحسن والأحنف وإبراهيم النخعى .

● « قال ابن التين : وعلى هذا تكون « ما » زائدة أو مصدرية وهو أبين الأقوال وأقعدها بكلام أهل اللغة »(١)

● قال أبو السعود رحمه الله : **﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون﴾**

« وفيه مبالغات مع تقليل نومهم واستراحتهم ، ذكر القليل من الليل الذى هو وقت الراحة ، والهجوع الذى هو الفرار من النوم »(٢) .

● قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله قوما فقال **﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون﴾** ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم .

فقال له أبى : طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ

وكـيـف تـنـام العين وهى قـريـرة
ولم تـدر فى أىّ المجالس تـنـزل ؟

قوله تعالى : **﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾** .

قال ابن زيد : السحر هو السدس الأخير من الليل .

وذكر بعض أهل العلم أن الساعة التى تفتح فيها أبواب الجنة : السحر .

لطيفـــة :

قال القاسمى : « قال الزمخشرى فى « أساس البلاغة » إنما سمى « السحر »

---

(١) فتح البارى كتاب التهجد جـ ٣ ص ٣٦ .

(٢) أبو السعود جـ ٥ ص ١٠١ .

استعارة لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح »[1] أهـ .

● قال بعض أهل العلم : إن يعقوب أخر الاستغفار لبنيه إلى وقت السحر .

● قال أبو السعود : فى قوله تعالى ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ :

« أى هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار فى الأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم .

وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه »[2] .

● قال القشيرى : « ينزلون أنفسهم فى الأسحار منزلة العاصين فيستغفرون استصغارا لقدرهم واستحقارًا لفعلهم »[3] .

لطيفـــــة :

قال القاسمى رحمه الله : « فى هذه الجملة الكريمة مبالغات فى وصف هؤلاء بقلة النوم وترك الإستراحة ، ولذلك ذكر القليل من الليل الذى هو وقت النوم ، والهجوع الذى هو الخفيف من النوم .

وزيادة « ما » لا تدل على القلة .

وبالجملة ففى الآية استحباب قيام الليل وذم نومه كله .

قال الرازى : فى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه فيستغفرون من التقصير ، وهذا سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ويمنّ به .

● وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنّه تعالى لمّا بيّن أنهم يهجعون قليلا ،

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى ص ٥٥٢٨ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٠١ .

(٣) لطائف الإشارات جـ ٦ ص ٣١ .

والهجوع مقتضى الطبع ، قال ﴿ **يستغفرون** ﴾ أى من ذلك القدر من النوم القليل .

- وفيه لطيفة أخرى نبيّنها فى جواب سؤال :

وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا قليلا من الليل ما يسهرون فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد ، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الإستغفار فى وجوه الأسحار ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال القاسمى أيضاً رحمه الله :

« والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا ، وطلب المغفرة بالفعل أى بالأسحار يأتون بفعل آخر طلبا للغفران وهو الصلاة والأول أظهر والثانى عند المفسرين أشهر »

« ويؤيد الثانى : الإشارة إلى الزكاة فى الآية بعدها ، والزكاة قرينة الصلاة فى كثير من الآيات .

وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار الإشارة إلى أنه ركنها المهم فى التهجد بل وفى غيره ، فيكون من إطلاق الجزء على الكل .

وقد ذكر فى أذكار الصلاة الاستغفار فى مواضع منها كالركوع والسجود وكان ﷺ يطيل الركوع والسجود فى التهجد لذلك »[1] أ هـ .

ملحوظة : سنتكلم عن المقصود بالاستغفار بالأسحار فيما بعد .

- قال الشيخ سيد قطب فى ظلال هاتين الآيتين : ﴿ **كانوا قليلا من ..** ﴾

« على هذه الصفة يرتسم مشهد لفريق مستيقن لا يخرص ، تقى لا يتبجح ،

---

(1) محاسن التأويل ص ٥٥٢٧ .

مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولا يقضي العمر في غمرة وذهول ، هذا الفريق فريق المتقين الأيقاظ .. الشديدي الحساسية برقابة الله لهم .. ورقابتهم لأنفسهم . يصور إحساسهم صورة خاشعة رفافة حساسة ﴿**كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**﴾ فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام .. المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام ، لا يطعمون الكرى إلا قليلا ، ولا يهجعون في ليلهم إلا يسيرا ، يأنسون بربهم في جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام ، فهي حال يتطلع إليها رجال من التابعين ذوي المكانة في الإيمان واليقين ، ويجدون أنفسهم دونها .. اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووفقهم إلى القيام بحقها ، وكتبهم بها عنده من المحسنين »[1] اهـ .

---

(1) الظلال ص ١١ ، ١٣ .

الآيـــة الثالثـــة

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾[1] .

- قال القرطبي رحمه الله :

« قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم .

قال زهير :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا
يزاولنا عن نفسه ونزاوله

ونسب إلى ابن عباس : « من صلى ركعتين أو أكثر بعد صلاة العشاء فقد بات لله ساجدا وقائمًا » .

وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما
واذر الدموع على الخدود سجاما

واعلم بأنك ميت ومحاسب
يا من على سخط الجليل أقاما

لله قوم أخلصوا فى حبه
فرضى بهم واختصّهم خدّاما

قوم إذا جنّ الظلام عليهمُ

(١) الفرقان الآية ٦٤ .

باتوا هنالك سجدا وقياما
خمص البطون من التعفف ضمرا
لا يعرفون سوى الحلال طعاما

ثم أضاف القرطبي فى قوله تعالى ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنّا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ قال « أى هم مع طاعتهم مشفقون وجلون من عذاب الله » .

قال ابن عباس : يقولون ذلك فى سجودهم وقيامهم »[1] .

قال الزمخشرى فى « الكشّاف » :

[« البيتوتة » خلاف الظلول ، وهو أن يدركك الليل نمت أو لم تنم .
وقالوا : من قرأ شيئا فى صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدا وقائما
- وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء

والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائما ويبيت قائما ، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله فى صرف العذاب عنهم كقوله تعالى ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ....** ﴾ الآية][2] أ هـ .

- قال أبو السعود رحمه الله :

﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ تقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل »[3] .

- **لطيفة للقشيرى :**

قال رحمه الله :

---

(١) القرطبي جـ ٧ ص ٤٧٨٧ ـ ٤٧٨٨ .
(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ص ٩٩ .
(٣) إرشاد العقل السليم جـ ٤ ص ٩٨ .

« يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ، فوجد صباحهم ثمرات وجود أرواحهم ، وأحسن الأشياء ظاهر بالسجود مُحَسَّن ، وباطن بالوجود مزين ، ويقال متصفين بالسجود قياما بآداب الوجود .

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنّم ﴾ : يجتهدون غاية الاجتهاد ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطبون بلسان التنصل :

وما رمت الدخول عليه حتى
حللت محلة العبد الذليل

سجدوا بظواهرهم فى المحراب ، وفى سرائرهم على تراب الخضوع وبساط الخشوع إبنعت الذبول وحكم الخمود »[1] أ هـ .

● قال القاسمى رحمه الله :

﴿ والذين يبيتون لربهم ﴾ إشارة إلى الإخلاص فى أدائها وابتغاء وجهه الكريم لما أن ذلك هو الذى يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله »[2] .

● قال الشيخ سيد قطب رحمه الله :

« يبرز الله عز وجل عباده ، عباد الرحمن بصفاتهم المميزة ومقوماتهم الخاصة ، وكأنهم خلاصة البشرية فى نهاية المعركة الطويلة بين الهدى والضلال ، بين البشرية الجاحدة المشاقة ، والرسل الذين يحملون الهدى لهذه البشرية ، وكأنما هم الثمرة الجَنية لذلك الجهاد الشاق الطويل والعزاء المريح لحملة الهدى فيما لاقوه من جحود وصلادة وإعراض .

﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ :

---

(١) لطائف الإشارات جـ ٤ ص ٣٢١ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ ١٢ ص ٤٥٨٩ طبع عيسى الحلبى .

والتعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمن فى جنح الليل والناس نيام ... فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، يتوجهون لربهم وحده ، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده .

هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أروح منه وأمتع ، مشغولون بالتوجه إلى ربهم ، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به ، ينام الناس وهم قائمون ساجدون ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ذى الجلال والإكرام ، وهم فى قيامهم وسجودهم وتطلعهم وتعلقهم تمتلىء قلوبهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم يقولون ﴿ **ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ وما رأوا جهنم ولكنهم آمنوا بوجودها ، وتمثلوا صورتها مما جاءهم فى القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله الكريم ، فهذا الخوف النبيل ، إنما هو ثمرة الإيمان العميق وثمرة التصديق ، وهم يتوجهون إلى ربهم فى ضراعة وخشوع ليصرف عنهم عذاب جهنم لا يطمئنهم أنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، فهم لِمَا يخالجُ قلوبهم من التقوى يستقلون عملهم وعبادتهم ولا يرون فيها ضمانا ولا أمانا من النار إن لم يتداركهم فضل الله وسماحته وعفوه ورحمته فيصرف عنهم عذاب جهنم »[1] .

الآيـــة الرابعـــة

قال تعالى :

﴿ يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾[2] .

---

(١) الظلال جـ٣ ص ٥٥ .

(٢) سورة المزمل الآيات من ١ ــ ٨ .

● قال ابن جرير الطبرى رحمه الله :

يعنى بقوله ﴿ يا أيها المزمّل ﴾ هو الملتف بثيابه وإنما عنى به نبى الله ﷺ ، واختلف أهل التأويل فى المعنى الذى وصف الله به نبيه فى هذه الآية من التزمل :

● فقال بعضهم : وصفه بأنه متزمل فى ثيابه .. متأهب للصلاة . عن قتادة : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ أى المتزمل فى ثيابه .

● وقال آخرون : وصفه بأنه متزمل النبوة والرسالة . عن عكرمة قال : زُمِّلتَ هذا الأمر فقم به .

● قال أبو جعفر : والذى هو أولى القولين بتأويل ذلك ، ما قاله قتادة لأنه قد عقبه بقوله ﴿ قم الليل ﴾ فكان ذلك بيانا عن أن وصفه بالتزمل بالثياب للصلاة وأن ذلك أظهر معنييه »[1] .

● قال القرطبى رحمه الله :

« قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال الأخفش وسعيد : « المزمل » أصله المتزمّل فأدغمت التاى فى الزاى ، وكذلك « المدثر » وقرأ أبىّ بن كعب على الأصل « المتزمل » و « المتدثر » وسعيد « المزمِّل »

وفى أصل « المزمّل » قولان :

أحدهما : أنه المتحمل ، يقال : زَمَل الشىء إذا حمله ، ومنه الزّاملة لأنها تحمل القُمَاش[2]

الثانى : أن المزّمل : هو المتلّفف : يقال تزمّل وتدثّر بثوبه إذا تغطّى ، وزمّل غيره إذا غطّاه ، وكل شىء لُفّف فقد زُمِّل ودُثِّر ، قال امرؤ القيس :

كأن أبانا فى أفانين ودقه
كبيرُ أُناسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ

(١) الطبرى جـ ٢٩ ص ١٢٤ .
(٢) قماش البيت : متاعه .

ثم أضاف القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ هذا خطاب للنبى ﷺ وفيه ثلاثة أقوال :

الأول : قول عكرمة ﴿ يا أيها المزمل ﴾ بالنبوة والملتزم بالرسالة ، وعنه أيضا يا أيها الذى زُمِّل هذا الأمر أى حُمِّله ثم فتر وكان يقرأ ﴿ يا أيها المُزَمَّل ﴾ بتخفيف الزاى وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول ، وكذلك « المُدَثَّر » والمعنى المزمِّل نفسه والمدثِّر نفسه ، أو الذى زَمّله غيره .

والثانى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ بالقرآن قاله ابن عباس[1]

الثالث : المزمل بثيابه قاله قتادة وغيره .

قال النخعى : كان متزملا بقطيفة

وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه

وقالت الحكماء : إنما خاطبه بالمزمّل والمدثّر فى أول الأمر لأنه لم يكن بعد ادثر شيئا من تبليغ الرسالة .

قال ابن العربى : « واختلف فى تأويل يا أيها المزمل » فمنهم من حمله على حقيقته فقيل له « يا من تلفق فى ثيابه أو فى قطيفته قم ، قاله إبراهيم وقتادة . ومنهم من حمله على المجاز كأنه قيل له : يا من تزمل بالنبوة ، قاله عكرمة وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذى لم يسم فاعله ، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل »

قلت ـ القرطبى ـ وقد بينا أنها على حذف المفعول ، وقد قرىء بها فهى صحيحة المعنى . قال : وأما من قال إنه زمل القرآن فهو صحيح فى المجاز لكنه قد قدمنا أنه لا يحتاج إليه .

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى : عن ابن عباس قال ﴿ يا أيها المزمل ﴾ أى يا محمد قد زملت القرآن فكأن الأصل يا أيها المتزمِّل .

وأضاف القرطبي :

قال السهيلي : ليس المزمّل باسم من أسماء النبي ﷺ ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدّوه في أسمائه ، وإنما المزمّل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثّر ، وفي خطابه بهذا الإسم فائدتان :

إحداهما : الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلى حين غاضب فاطمة رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب وقال له: « قم يا أبا التراب إشعارًا له أنه غير عاتب عليه وملاطفة له ، وكذلك قول النبي عليه السلام لحذيفة « قم يانومان » وكان نائمًا ملاطفة له وإشعارًا الترك بالعتب والتأنيب فقول الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ **يا أيها المزمل قم** ﴾ فيه تأنيس وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمل راقد ليله لينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة »[1] أ هـ .

● قال أبو السعود :

فالتعرض للوصف حينئذ للإشعار بعليته للقيام أو للأمر به فإن تحميله عليه الصلاة والسلام لأعباء النبوة مما يوجب الإجتهاد في العبادة »[2] .

● قال القاسمي رحمه الله في تفسيره : « خوطب عليه الصلاة والسلام بحكاية

---

(١) القرطبي جـ١٠ ص ٦٨٢٣ ـ ٦٨٢٥ . (٢) إرشاد العقل السليم جـ ٥ ص ٢٠٤ .

(٣) محاسن التأويل ٥٩٥٨/١٦ .

حاله وقت نزول الوحى ، ملاطفة وتأنيسا وتنشيطا للتشمير لقيام الليل ، وقيل معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزمل الزِّمْل إذا تحمل الحمل ففيه استعارة شبه إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل بجامع المشقة .

قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقى واعتضاده بالأحاديث الصحيحة لا وجه لادعاء التجوز فيه ، وقد يجاب بأن الأحاديث رويت فى نزول سورة « المدثر » لا فى هذه السورة ، إلا أن يقال : هما بمعنى واحد »[٣] .

قوله تعالى ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ إلى قوله ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ .

- قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره :

[« وقوله » ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ قم الليل يا محمد كله إلا قليلا منه

(نصفه) يقول : قم نصف الليل

(أو انقص منه قليلا أو زد عليه) يقول : أو زد عليه ، خيّره الله تعالى ذكره حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل أىّ ذلك شاء فعل ، فكان رسول الله ﷺ وأصحابه فيما ذكر يقومون الليل نحو قيامهم فى شهر رمضان ، فيما ذكر حتى خفف ذلك عنهم .

قال المروزى : قال ابن عباس : لما نزلت أول المزمل ، كانوا يقومون نحوا

من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها سنة »][١،٢]

● وعن الحسن : « إن الله لما أنزل هذه السورة وكان بين أولها وآخرها سنة ﴿ **يا أيها المزمل** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ ، ثم أنزل الله بعد سنة ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** ﴾ قال : لا والله ما كل القوم قام بها قال ﴿ **والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم** ﴾ فبكى الحسن عند ذلك وقال : الحمد لله الذى جعل قيام الليل تطوعا بعد فريضة ، ﴿ **علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ قال: ولا بد من قيام الليل . قال ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ قال : فريضتان لا صلاح للأعمال إلا بهما » .

● وعن أبي عبد الرحمن السلمى : لما نزلت ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا** ﴾ قام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فاقرءوا ما تيسر من القرآن** ﴾[٣] .

● وعن قتادة : « افترض الله قيام الليل فى أول هذه السورة فقام رسول الله

---

(١) تفسير الطبرى .

(٢) قال مقبل بن هادى الوادعى فى أسباب النزول ص ١٦٦ « الحديث رجاله رجال الصحيح إلا أحمد بن محمد المروزى أبو الحسن بن شبرية وهو ثقات وأخرجه ابن جرير ورجاله رجال الصحيح وأخرجه ابن أبي حاتم ، كما فى تفسير ابن كثير ٤/٤٣٦ ورجاله رجال الصحيح » أ هـ .

(٣) مختصر قيام الليل للمقريزى وأصل قيام الليل لمحمد بن نصر المروزى قال ابن حجر فى الفتح « وكذا أخرج المروزى عن أبي عبد الرحمن السلمى والحسن وعكرمة وقتادة بأسانيد صحيحة عنهم » فتح البارى جـ ٣ التهجد ص ٢٨ ، طبعة السلفية .

ﷺ وأصحابه حولا ، فأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهرا ثم أنزل التخفيف في آخرها فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة قال ﴿ **عَلِم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله** ﴾. الآية فنسخت هذه الآية ماكان قبلها .

- وعن عكرمة قال : « لبثوا بذلك سنة فشق عليهم وتورمت أقدامهم ثم نسختها آخر السورة قوله ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ .اهـ .
- قال القرطبي رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ **قم الليل** ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعا لضمة القاف ، وحكى الفتح لخفته .

قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هربا من التقاء الساكنين فبأى حركة تحركت فقد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدية إلى المفعول ، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه إلا أن ظرف المكان لا يتعدى إليه إلا بواسطة ، لا تقول قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار .

وقد قيل أن « قم » هنا معناه صَلِّ ، عبر به عنه واستعير له حتى صار عرفا بكثرة الاستعمال .

قال القرطبي : « الليل » حد الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

- واختلف هل كان قيامه فرضا وحتما ، أوكان ندبا وحضّا ، والدلائل تقوى أن قيامه كان حتما وفرضا ، وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض ، لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت ، وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها .
- واختلف أيضا : هل كان فرضا على النبي ﷺ وحده ، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ، أو عليه وعلى أمته ، ثلاثة أقوال :

الأول : قول سعيد بن جبير ، لتوجه الخطاب إليه خاصة .

الثانى : قول ابن عباس كان قيام الليل فريضة على النبي ﷺ الأنبياء قبله .

الثالث : قول عائشة وابن عباس وهو الصحيح ، كما فى صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله ... الحديث ، وفيه فقلت لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ ؟ فقالت : ألست تقرأ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت : بلى ؛ قالت فإن الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة فقام ﷺ وأصحابه حولا ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهرا فى السماء حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة ، وذكر الحديث .

ثم أضاف رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ **إلا قليلا** ﴾ استثناء من الليل ، أى صلّ الليل كله إلا يسيرا منه لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف ثم قال تعالى : ﴿ **نصفه أو انقص منه قليلا** ﴾ فكان ذلك تخفيفا . إذ لم يكن زمان القيام محدودا ، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ . وقال الأخفش : « نصفه » أى أو نصفه ؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة .

وقال الزجاج : « نصفه » بدل من الليل ، و « إلا قليلا » استثناء من

النصف . والضمير فى « منه » و « عليه » للنصف ، والمعنى : « قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ؛ فكأنه قال : قم ثلثى الليل أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن « نصفه » بدل من قوله « قليلا »[1] وكان مخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه ، أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك أنا الملك ، من ذا الذى يدعونى فاستجيب له ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر » ونحوه عن أبى هريرة وأبى سعيد جميعا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثى الليل .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « **إذا مضى شطر الليل ـ أو ثلثاه ـ ينزل الله** » الحديث رواه من طريقين عن أبى هريرة هكذا على الشك .

قال علماؤنا : « وبهذا الترتيب انتظم الحديث والقرآن فإنهما يبصران من مشكاة واحدة »[2] أهـ .

---

(١) بهذا القول جزم الطبرى كما قال ابن حجر فى الفتح ١٩/٣ .

(٢) القرطبى جـ ١٠ ص ٦٨٢٣ ـ ٦٨٢٥ .

● قال أبو السعود رحمه الله :

« التعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام ، والإيذان بفضله ، وكون القيام فيه بمنزلة القيام فى أكثره فى كثرة الثواب واعتبار قلته بالنسبة إلى الكل مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر »[1] .

● قال القاسمى رحمه الله :

« قم الليل : أى فيه للصلاة ودع التزمل للهجوع ﴿ إلا قليلا ﴾ بحكم الضرورة للإستراحة ومصالح البدن ومهماته التى لا يمكن بقاؤه بدونها ، ثم قال : ولا يقال : كيف يكون النصف قليلا وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل ، لا إلى عديله »[2] .

● جاء فى « تتمة أضواء البيان » :

« هذه الآية الكريمة وما بعدها بيان لمجمل قوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ الآية ، وفيها بيان لكيفية القيام وهو بترتيل القرآن »[3]

﴿ ورتِّل القرآن ترتيلا ﴾ :

● قال محمد بن نصر المروزى :

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبى مسعود جـ ٥ ص ٢٠٤ .
(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ ١٦ ص ٥٩٥٨ .
(٣) أضواء البيان للشنقيطى - تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم تلميذ الشنقيطى جـ ٨ ص ٩ .

« عن ابن عباس قال بينه تبيينا .

وقرأ علقمة على عبد الله وكان حسن الصوت فقال : رتل فداك أبى وأمى فإنه زين القرآن .

وعن مجاهد : «ورتل القرآن ترتيلا : ترسل فيه ترسيلا »[1]

● قال القرطبي رحمه الله : قوله تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه فى مهل وبيان مع تدبر المعانى .

وقال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . وقال مجاهد : أحبّ الناس فى القراءة إلى الله أعقلهم عنه .

والترتيل : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، ومنه ثغر رَتِل ورَتَل بكسر العين وفتحها إذا كان حسن التنضيد وقال أبو بكر بن طاهر : تدبر فى لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبك بفهم معانيه ، وسرك بالإقبال عليه »[2]

● قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى اقرأه مترسلا بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، وروى مسلم من حديث حفصة « أن النبى ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها »[3]

● قال القاسمى رحمه الله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى بيّنه تبيينا وترسّل فيه ترسلا

قال الزمخشرى : تبيين القرآن قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجىء المتلوّ منه شبيها بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور

(١) مختصر قيام الليل للمقريزى ص ١٠ .

(٢) القرطبي ص ٦٨٢٩ .

(٣) فتح البارى ــ كتاب التهجد جـ٣ ص ٢٨ .

الأقحوان ، وأن لا يهذه هذّا ، ولا يسرده سردا .

تنبيه :

قال السيوطى : فى الآية استحباب ترتيل القراءة وأنه أفضل من الهذّبه وهو واضح .

وقد ثبت فى السنة أنه ﷺ كان يقطع قراءته حرفا حرفا ، وأنها كانت مفسرة حرفا حرفا وأنه كان يقف على رؤوس الآى .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبره والفقه فيه والعمل به .

قال ابن مسعود : « لا تهذّوا القرآن هذّ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة »[1]

● قال الشيخ عطية سالم فى « تتمة أضواء البيان » :

المسألة الثانية : « ما يذكره الفقهاء فى كيفية قيام الليل عامة هل الأفضل كثرة الركعات لكثرة السجود ، وحيث أن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ، أم طول القيام للقراءة ، حيث أن للقارىء بكل حرف عشر حسنات ، فهنا قوله تعالى : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ نص على أن العبرة بترتيل القرآن ترتيلا ، وأكد بالمصدر تأكيد الإرادة هذا المعنى .

وفى الصحيح عن أنس : سئل عن قراءة رسول الله ﷺ قال : كانت مُدًّا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد بسم الله ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم .

ثم قال رحمه الله « إن للمد حدودا معلومة فى التجويد حسب تلقى القرآء رحمهم الله فما زاد عنها فهو تلاعب ، وما قلّ عنها فهو تقصير فى حق التلاوة .

وهذا الوصف هو الذى يتأتى منه الغرض من التلاوة وهو التدبر والتأمل ، كما

---

(١) محاسن التأويل جـ ١٦ ص ٥٩٥٩ .

فى قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ ، كما أنه هو الوصف الذى يتأتى معه الغرض من تخشع القلب كما فى قوله تعالى : ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾

ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلا ، فإذا كان هذا كالشعر أو الكلام العادى لما فهم ، وإذا كان مطربا كالأغانى لما أثر ، فوجب الترتيل كما بين ﷺ (١) .

قوله تعالى ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾

● قال محمد بن نصر المروزى رحمه الله :

« قال الحسن : العمل به ، وفى رواية قال : ثقيلا فى الميزان يوم القيامة .

وقال قتادة : تثقل والله فرائضه وحدوده

وفى رواية : ليس يعنى قراءته ولكن فرائضه ، وسننه .

وقد تأول بعضهم أنه أراد ثقل الوحى على النبى ﷺ حين كان ينزل عليه »(٢)

● وقال القرطبى : قوله تعالى ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ هو متصل بما فرض من قيام الليل أى سنلقى عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا » يثقل حمله لأن الليل للمنام ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان ، فهو أمر يثقل على العبد ، وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه .

وقال مجاهد : حلاله وحرامه :

---

(١) تتمة أضواء البيان جـ ٨ ص ٦١٠ ، ٦١١ .

(٢) مختصر قيام الليل ص ١٠ .

أبو العالية : ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام ، محمد بن كعب : ثقيلا على المنافقين ، وقيل على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم والكشف عما حرفه أهل الكتاب .

السدى : ثقيل بمعنى كريم ، مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل عليّ أى يكرم عليّ

الفرّاء : « ثقيلا » رزينا ليس بالخفيف السّفساف لأنه كلام ربنا ، وقال الحسين بن الفضيل : ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد .

وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل فى الدنيا يثقل فى الميزان يوم القيامة .

وقيل ثقيلاً : أى ثابتا كثبوت الثقيل فى محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبدا . وقيل هو القرآن نفسه

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

قال ابن العربى : « وهذا أولى ، لأنه الحقيقة ، وقد جاء ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « **بُعثت بالحنيفية السمحة** »[1]

● قال القشيرى رحمه الله : « ثقيلا سماعة على من جهده ، ويقال « ثقيلا بعبئه إلا على من أيد بقوة سماوية ورُبىَّ فى حجر التقريب »[2]

● قال القاسمى رحمه الله[3] : ﴿ **إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا** ﴾ أى رصينا ،

(١) القرطبى ص ٦٨٣٠ ـ ٦٨٣١ .

(٢) لطائف الإشارات جـ ٦ ص ٢٠٢ .

(٣) محاسن التأويل ص ٥٩ :

لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عداه ، ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوّز بالثقيل عنه أو ثقيلا على المتأمّل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر أو ثقيلا تلقيه . وعلى كل فالجملة معللة للأمر بالترتيل وإن ثقله مما يستدعيه .

● جاء فى « تتمة أضواء البيان » :

[قد بيّن الله تعالى أن هذا الثقل قد يخففه الله على المؤمنين فى الصلاة فى قوله ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ وكذلك القرآن ثقيل على الكفار خفيف على المؤمنين محبب إليهم . وقد جاء فى الآثار أن بعض السلف كان يقوم الليل كله بسورة من سور القرآن تلذذا وارتياحا كما قال تعالى ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ فهو ثقيل فى وزنه ، ثقيل فى تكاليفه ، ولكن يخففه الله وييسره لمن هداه ووفقه إليه »]

قوله تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا** ﴾

● قال ابن جرير : « يعنى جل وعز بقوله إن ناشئة الليل : إن ساعات الليل ، وكلّ ساعة من ساعات الليل ناشئة من الليل .

وقد اختلف أهل التأويل فى ذلك :

● قال ابن عباس : إن الليل كله ناشئة ، وقال مثله ابن الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ﴿ **إن ناشئة الليل** ﴾ قال بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل قالوا نشأ .

● عن أبى ميسرة : « نشأ » : قام ، وعن ابن أبى نجيح قال : إذا قام الرجل من الليل فهو ناشئة الليل .

● عن عكرمة فى قوله ﴿ **إن ناشئة الليل** ﴾ قال هو الليل كله .

• عن مجاهد قال : إذا قمت الليل فهو ناشئة .

• قال ابن زيد : « إن ناشئة الليل » قال قيام الليل ، قال : وأى ساعة من الليل قام فقد نشأ .

• عن مجاهد قال : أى الليل قمت فهو ناشئة

• قال الضحّاك : « إن ناشئة الليل » يعنى الليل كله ، وقال ابن عباس : الليل كله .

وقال آخرون : بل ذلك ما كان بعد العشاء ، فأما ما كان قبل العشاء فليس بناشئة .

• عن أبى مجلز فى قوله : « إن ناشئة الليل » قال : ما بعد العشاء ناشئة .

• قال أبو رجاء : ما بعد العشاء الآخرة .

• عن قتادة : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة »

• قال محمد بن نصر المروزى :

• [عن معاوية بن قرة : إن ناشئة الليل : قيام الليل .

• وعن ثابت كان أنس يصلى ما بين المغرب والعشاء فقيل له ما هذه الصلاة قال : أما سمعتم قول الله : إنّ ناشئة الليل هذه ناشئة الليل .

• وعن علىّ بن الحسين : ناشئة الليل ما بين المغرب والعشاء .

• وعن ابن المنكدر وأبى حازم : ناشئة الليل ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء][1]

• قال محمد بن نصر : « وقد أنكر بعض أهل العلم بالعربية أن تكون الناشئة بلسان الحبشة لقول الله ﴿ **إنا جعلناه قرآنا عربيا** ﴾ وقال هى بلسان العرب ، وهى مأخوذة من قوله ﴿ **أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحلية** ﴾ ومن قوله ﴿ **إنّا أنشأناهنّ**

---

(١) مختصر قيام الليل ص ١٤ ، ١٥ .

إنشاء ﴾ أى ابتدأناهنّ . ويقال : نشأت تنشأ نشأ أى ابتدأت وأقبلت شيئا بعد شىء ، وأنشأها الله فنشأت وانشأت فكأنه قال إن ساعات الليل الناشئة ، ومنه قوله ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ يريد ابتداء خلقهم »

• قال القرطبي : [« قال العلماء : ناشئة الليل أى أوقاته وساعاته لأن أوقاته تنشأ أولا فأولا ، يقال : نشأ الشىء ينشأ إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شىء فهو ناشىء وأنشأه الله فنشأ ، والمراد إن ساعات الليل الناشئة فاكتفى بالوصف عن الإسم فالتأنيث للفظ ساعة ، لأن كل ساعة تحدث »

• وحول القول بأن نشأ بالحبشة ولسانها قام قال القرطبي :

« لعله أراد أن الكلمة عربية ولكنها شائعة فى كلام الحبشة غالبة عليهم ، وإلا فليس فى القرآن ما ليس فى لغة العرب » .

قال القرطبي : –

« المسألة الثانية : بيّن تعالى فى هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار ، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر وأجلب للثواب . واختلف العلماء فى المراد بناشئة الليل .

• فقال ابن عمر وأنس بن مالك : هو ما بين المغرب والعشاء تمسكا بأن لفظ نشأ يعطى الإبتداء فكان بالأولية أحق ومنه قول الشاعر :

ولولا أَنْ يُقالَ صَبَا نُصَيبٌ
لَقلتُ بِنَفْسِيَ النَّشْأُ الصِّغَارُ

وكان على بن الحسين يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : هذه ناشئة الليل .
وقال عطاء وعكرمة : إنه بدء الليل .

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : هى الليل كله ، لأنه ينشأ بعد النهار ، وهو الذى اختاره مالك بن أنس .

قال ابن العربي : وهو الذى يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة .

وقالت عائشة وابن عباس ومجاهد : إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم ، ومن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة .

قال يمان وابن كيسان : هو القيام من آخر الليل .

وقال ابن عباس : كانت صلاتهم أول الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدرى متى يستيقظ .

وفى الصحاح : ناشئة الليل أول ساعاته .

- وعن الحسن ومجاهد : هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح .

وعن الحسن أيضاً : ماكان بعد العشاء فهو ناشئة .

- ويقال : ما ينشأ فى الليل من الطاعات حكاه الجوهرى][1] أ هـ .

- قال الزمخشرى فى « الكشاف »

« النفس الناشئة بالليل التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة أى تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت ، ونشأ من مكانه إذا نهض قال :

نشـأنـا إلى خـوض يـرى فيهـا السرى
وألصق منهـا مشرفـات الـقماصر »[2]

- قال البخارى رحمه الله فى صحيحه :

« قال أبو عبد الله قال ابن عباس رضى الله عنهما : نشأ قام بالحبشية »[3]

قال الحافظ فى الفتح :ـ

[قال ابن عباس نشأ قام بالحبشية ، فيكون معنى قوله تعالى ﴿ **ناشئة**

---

(١) القرطبى ص ٦٨٣١ ـ ٦٨٣٢ .

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٥ ص ١٧٦ .

(٣) البخارى ـ كتاب التهجد باب قيام النبى ﷺ من نومه وما نسخ من قيام الليل ٣/٢٧ .

الليل ﴾ أى قيام الليل ، وهذا التعليق وصله عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير عنه أنه قال : إن ناشئة الليل هو كلام الحبشة نشأ قام .

وذهب الجمهور إلى أنه ليس فى القرآن شىء بغير العربية ، وقالوا : ما ورد من ذلك فهو من توافق اللغتين ، وعلى هذا فناشئة الليل مصدر بوزن فاعلة من نشأ إذا قام ، أو اسم فاعل أى النفس الناشئة بالليل أى التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة أى تنهض .

وحكى أبو عبيد فى « الغريبين » أن كل ما حدث بالليل وبدا فهو ناشىء وقد نشأ .

وفى « المجاز » لأبى عبيدة : ناشئة الليل آناء الليل ناشئة بعد ناشئة .

قال ابن التين : والمعنى أن الساعات الناشئة من الليل ـ أى المقبلة بعضها فى أثر بعض ـ هى أشد][1]

قال القاسمى : « إن ناشئة الليل » أى نشأته وطبيعة خلقه ومظهره »

قوله تعالى : ﴿ **هى أشد وطئاً وأقوم قيلا** ﴾ .

قال ابن جرير :

« هى أشد وطئا : ناشئة الليل أشد ثباتا من النهار ، وأثبت فى القلب ، وذلك أن العمل بالليل أثبت منه بالنهار وحُكى عن العرب وَطِئنا الليل وَطْئا : إذا ساروا فيه وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال من قال من أهل التأويل : ـ

• عن قتادة ﴿ **هى أشد وطئا** ﴾ : أى أثبت فى الخير ، وأبلغ فى الحفظ .

• عن ابن عباس : « ناشئة الليل » كانت صلاتهم أول الليل ، هى أشد وطئا : يقول هو أجدر أن تُحصوا ما فرض الله عليكم من القيام ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ .

---

(١) فتح البارى ص ٢٩ جـ ٣ .

● قال ابن زيد فى قوله « هى أشد وطئا » :

[إن مصلى الليل القائم بالليل هى أشد وطئا : طمأنينة وأفرغ له قلبا ، وذلك أنه لا يعرض له حوائج ولا شىء .

وقالوا مواطأة للقول وفراغا للقلب .

وأقوم قيلا : وأصوب قراءة .

وقال ابن عباس : أدنى من أن تفقهوا القرآن .

قال ابن زيد : أقوم قراءة لفراغه من الدنيا » .

قال ابن جرير : إن قراءة الأكثر وَطئا بفتح الواو وسكون الطاء .

● قال محمد بن نصر المروزى :

عن الحسن قال : أثبت فى القراءة وأقوى على القراءة .

وعن مجاهد قال : مواطأة للقول وأفرغ للقلب .

● وعن الضحاك : قراءة القرآن بالليل أثبت منه بالنهار وأشد مواطأة بالليل منه بالنهار .

قال محمد بن نصر : ـ

« وأما قوله هى أشد وطئا فإن القرّاء اختلفوا فى قراءة هذا الحرف فقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وابن كثير وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى وَطئا بفتح الواو مقصورة ، وكان ابن عامر وابن محيصن وأبو عمرو يقرؤها وِطاء مكسورة الواو ممدودة .

قال أبو عبيد : وهذه أحب إلىّ لأن التفسير يُصدّقها ، وإنما هى مواطأة السمع والبصر إيّاه إذا قام يصلى فى ظلمة الليل .

● وقال غير أبى عبيد من قرأها وطئا « أراد شدة الوطىء أى أن الصلاة فى ساعات الليل أشد وأثقل على المصلى من الصلاة فى ساعات النهار وهو من

قولهم » اشتدت على القوم وطأة سلطانهم « إذا ثقل عليهم ما يلزمهم به ويأخذهم به فأعلم الله نبيه ﷺ أن الثواب فى قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها ، ومن قرأ وطأ فهو مصدر لوطأت فلان على كذا وكذا مواطأة ووطأً .

وأقوم قيلا : أى أخلص للقول لأن الليل تهدأ عنه الأصوات وتنقطع فيه الحركات فيخلص القول ولا يكون دون تسمُّعه وتفهُّمه حائلٌ »][1]

• قال القرطبى :

[وطاءً بكسر الواو وفتح الطاء والمد ، واختاره أبو عبيد وَطْئًا : بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، واختاره أبو حاتم .

والمعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار وذلك أن الليل وقت منام وتودّع وإجمام ، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة .

ومَنْ مدّ فهو مصدر : وأطأت وطاء ومواطأة أى وافقته .

• قال ابن زيد : واطأته الأمر مواطأة إذا وافقته من الوفاق ، وفلان يواطىء إسمه على إسمى ، وتواطؤوا عليه أى توافقوا فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان لانقطاع الأصوات والحركات قاله مجاهد وابن أبى مليكة وغيرهما .

وقال ابن عباس بمعناه : أى يواطىء السمع القلب ، قال الله تعالى : ﴿ ليواطئوا عدة ما حرّم الله ﴾ أى ليوافقوا .

وقيل : المعنى أشد مِهادا للتصرف فى التفكر والتدبر والوِطاء خلاف الغِطاء .

وقيل : « أشد وَطْأً » بسكون الطاء وفتح الواو : أى أشد ثباتا من النهار فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل وألتى لما يلهى ويشغل

(١) محمد بن نصر المروزى ـ مختصر قيام الليل للمقريزى ص ١٤ ـ ١٥ .

القلب . والوطء الثبات تقول وطئت الأرض بقدمى .

وقال الأخفش : أشد قياما

وقال الفرّاء : أثبت قراءة وقياما ، وعنه : أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش فعبادته تدوم ولا تنقطع .

وقال الكلبي : أشد نشاطا للمصلى لأنه فى زمان راحته .

ثم أضاف القرطبي :

قوله تعالى ﴿ **وأقوم قيلا** ﴾ : أى القراءة بالليل أقوم منها بالنهار ، أى أشد استقامة واستمرارا على الصواب ، لأن الأصوات هادئة والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه .

قال قتادة ومجاهد : أصوب للقراءة وأثبت للقول ، لأنه زمان التفهم .

وقال أبو على : « أقوم قيلا » أى أشد إستقامة لفراغ البال بالليل . وقيل : أعجل إجابة للدعاة حكاه ابن شجرة .

وقال عكرمة : عبادة الليل أشد نشاطا ، وأتم إخلاصا ، وأكثر بركة .

وعن زيد بن أسلم : أجدر أن يتفقه فى القرآن][1] أ هـ .

● قال البخارى : (وطِاءً قال : مُواطأةً للقرآن أشد موافقة كسمعه وبصره وقلبه لِيُواطئوا : ليوافقوا .

قال الحافظ فى الفتح : قوله وطاء قال مواطأة للقرآن ... وقلبه وهذا وصله عبد بن حميد من طريق مجاهد . ﴿ **وأقوم قيلا** ﴾ : أبلغ فى الحفظ[2] .

● قال القاسمى رحمه الله :

---

(١) القرطبي ص ٦٨٣٢ - ٦٨٣٣ .

(٢) فتح البارى ٣ ، ٢٩٢٢٧ .

[« أشد وطئا » أي موافقة لما يراد منها من جمع الهم وهدوء البال . و « أقوم قيلا » أي أشد مقالا وأصوبه .

قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات ويخلص القول ولا يكون دون سمعه وتفهمه حائل .

ـ ونقل السيوطي عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هي المعاني المستنبطة من القرآن بالليل .

أشد وطئا : أبين أثرا . وأقوم قيلا : أصحّ مما تخرجه الأفكار بالنهار ، لخلوّ السمع والبصر عن الاشتغال][1] .

● قال الشيخ عطية محمد سالم في « تتمة أضواء البيان للشنقيطي » :

[إن ما تنشأه من قيام الليل أشد مواطأة للقلب ، وأقوم قيلا في التلاوة والتدبر والتأمل وبالتالي والتأثر ، ففيه إرشاد إلى ما يقابل هذا الثقل فيما سيلقى عليه من القول ، فهو بمثابة التوجيه إلى ما يتزود به لتحمل ثقل أعباء الدعوة والرسالة .

وقد سمعت من الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ـ يعني الشيخ الشنقيطي رحمه الله ـ قوله : لا يثبت القرآن في الصدر ، ولا يسهل حفظه ، وييسر فهمه إلا القيام به من جوف الليل ، وقد كان رحمه الله تعالى لا يترك ورده من الليل صيفا أو شتاء ، وقد أفاد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ فكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وهكذا هنا فإن ناشئة الليل كانت عونا له ﷺ على ما سيلقى عليه من ثقل القول][2] أ هـ .

---

(١) محاسن التأويل ص ٥٩٦٠ .

(٢) تتمة أضواء البيان ص ٦١٣ ، ٦١٤ .

قوله تعالى : ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾

● قال محمد بن نصر المروزى :

[قوله تعالى : ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ قال ابن عباس : النوم والفراغ .

وقال الضحاك ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة : فراغا طويلا][1]

● قال الطبرى رحمه الله :

[قوله تعالى ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ قال ابن زيد : لحوائجك فاجعل لدينك الليل]

● قال القرطبي : [سبحا : قراءة العامة بالحاء غير معجمة أى تصرفا فى حوائجك وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا .

والسبح : الجرى والدوران ، ومنه : السابح فى الماء ، لتقلبه بيديه ورجليه ، وفرس سابح شديد الجرى قال امرؤ القيس :

مِسَحٌّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى
أثرْن الغُبار بالكدِيدِ المُرَكَّلِ[2]

ـ وقيل : السبح الفراغ ، أى إن لك فراغا للحاجات بالنهار .

ـ وذكر الخليل ﴿ إن لك ... سبحا ﴾ نوما والتسبح : التمدد وقرأ يحيى بن يَعْمُر وأبو وائل « سَبْخًا » بالخاء المعجمة .

قال المهدوى : ومعناه النوم روى ذلك عن القارئين بهذه القراءة ، وقيل معناه : الخفة والسعة والاستراحة . قال الشاعر :

---

(١) مختصر قيام الليل ص ١٥ .

(٢) مسح : معناه نصب الجرى نصبا ، الونى : الفتور ، الكديد : الموضع الغليظ ، المركل : الذى يركل بالأرجل ، والمعنى أن الخيل المسرعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر .

فَسَبِّخْ عليك الهَمَّ واعلم بأنه
إذا قدَّر الرحمن شيئا فكائنُ

الأصمعى : يقال سبّخ الله عنك الحمّى أى خففها
وسبخ الحرُّ : فتر وخفّ ، والتسبيخ : النوم الشديد .

● وأيضاً : التسبيخ : توسيع القطن والكتان والصوف وتنفيشها .
وقال ثعلب : السبخ بالخاء التردد والاضطراب ، والسبخ أيضا السكون .
وقال أبو عمرو : السبخ النوم والفراغ .
قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد وتكون بمعنى السبح بالحاء غير المعجمة] (١)

● قال أبو السعود : [إن لك فى النهار : سبحا طويلا : أى تقلبا وتصرفا فى مهماتك واشتغالا بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليك بها فى الليل ... وهذا بيان للداعى الخارجى إلى قيام الليل .

وقرىء سبخا : أى تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه] (٢)

● قال الحافظ فى الفتح : [قوله ﴿ سبحا طويلا ﴾ أى فراغا : وصله ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وغيرهم .
وعن السدى : سبحا طويلا أى تطوعا كثيرا كأنه جعله من السبحة وهى النافلة] (٣)

---

(١) القرطبى ص ٦٨٣٤ .
(٢) أبو السعود جـ ٥ ص ٢٠٥ .
(٣) فتح البارى جـ ٣ ص ٢٩ . يقال للمرأة : سبِّخى قطنك ، والسّبيخ من القطن ما يسبخ بعد النّدْف أى يُلف لتغزله المرأة والقطعة منه سبيخة وكذلك من الصوف والوبر ، ويقال القطع القطن . سبائخ . قال الأخطل يصف القناص والكلاب :
فأرسلوهنّ يذرين التراب كما يذرى سبائخ قطن ندْفُ أوتار

• قال القاسمى : [﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلاً** ﴾ أى تقلبا فى مهماتك واشتغالا بها فلهذا أمرت بقيام الليل. ﴿ **واذكر اسم ربك** ﴾ أى دُمْ على ذكره ليلا ونهارا .

قال الزمخشرى : وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره][1] .

لطيفة للقشيرى : فى قوله تعالى ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا** ﴾

[يا أيها المتزمل بأعباء النبوة قم الليل ، يا أيها الذى يُخفِى ما خصصناه به قم فأنذر فإنا نصرناك .

ويقال : قم بنا .. يا من جعلنا الليل ليسكن فيه كل الناس .. قم أنت فليسكن الكل ولتقم أنت .

ويُقال لمّا فرض عليه القيام أخبر عن نفسه لأجل أمته وإكراماً لشأنه وقدره .

ورتّل القرآن ترتيلا : ارتع بسرّك فى فهمه وتأنَّ بلسانك فى قراءتك .

« إن ناشئة الليل .. هى أشد مواطأة للقلب وأقوم قيلا لأنها أبعد من الرياء ويكون فيها حضور القلب أتم وسكون السر أبلغ][2] .

كلمات للحياة :ـ

قال الشيخ سيد قطب حول آيات القيام فى سورة المزمل : كلمات أريجها أطيب من شذى الورود :

قال رحمه الله :

---

(١) محاسن التأويل ص ٥٩٦٠ .

(٢) لطائف الإشارات جـ ٦ ص ٢٠٩ ، ٢١١ .

[« قيل لرسول الله ﷺ « قم » فقام .. وظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما لم يسترح .. ولم يسكن ولم يعش لنفسه ولا لأهله ... قام وظل قائما على دعوة الله .

﴿ **يا أيها المزمل : قم** ﴾ ...

إنها دعوة السماء .. وصوت الكبير المتعال . قم للأمر العظيم الذى ينتظرك والعبء الثقيل المهيأ لك .. قم للجهد والتعب والكد والتعبد . قم فقد مضى عهد النوم والراحة .. قم فتهيأ للأمر واستعد ..

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش فى البيت الهادىء والحضن الدافىء .. لتدفع به فى الخضم .. بين الزعازع والأنواء .. وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً ..... فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الكبير فماله والنوم ؟ وماله والراحة ؟ وماله والفراش الدافىء ؟ والعيش الهادىء ؟ والمتاع المريح ؟ ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدّره فقال لخديجة رضى الله عنها وهى تدعوه أن يطمئن وينام « **مضى عهد النوم يا خديجة** »

﴿ **يا أيها المزمل قم الليل** ﴾

إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة .. **قيام الليل .. أكثر ... أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه .. وأقله ثلث الليل وكان هذا** الإعداد للقول الثقيل الذى سينزله الله عليه ...

﴿ **إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا** ﴾

هو هذا القرآن وما وراءه من التكاليف ... والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب ﴿ **لو أنزلنا هذا**

القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه .

وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل ..

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة لثقيل يحتاج إلى إستعداد طويل ، وإن الإتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذى تهيأ لرسول الله ﷺ لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الإستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا إرتياب ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية ... والاتصال بالله وتلقى فيضه ونوره .. والأنس بالوحدة معه .. والخلوة إليه .. وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود فى لحظة الترتيل بلا لفظ بشرى ولا عبارة ، واستقبال اشعاعاته وإيحاءاته ، وإيقاعاته فى الليل الساجى .

إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهظ والجهد المرير الذى ينتظر الرسول ﷺ ، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل ، وينير القلب فى الطريق الشاق الطويل ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه فى الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير .

إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا :

إن مغالبة هواتف النوم ، وجاذبية الفراش بعد كد النهار ، أشد وطئا وأجهد للبدن ولكنه إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثارا للأنس به ، ومن ثمّ فإنها أقوم قيلا ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها ، وإنها لتسكب فى القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا ،

قد لا يجدها فى صلاة النهار وذكره ، والله الذى خلق القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه ، وما يوقع عليه ، وأى الأوقات فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيؤا ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه . والله سبحانه وتعالى وهو يعد عبده ورسوله محمدا ﷺ ليتلقى القول الثقيل وينهض بالعبء الجسيم اختار له قيام الليل .

﴿إن لك فى النهار سبحا طويلا﴾ :-

فلينقض النهار فى هذا السبح والنشاط ، وليخلص لربه فى الليل .. يقوم له بالصلاة والذكر والتبتل والانقطاع الكلى عما عدا الله ، والاتجاه الكلى إليه والحضور معه بكامل الحسّ والمشاعر فليس هناك إلا الله يتجه إليه من يريد الإتجاه .

إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ... :

﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ :

إنها لمسة التخفيف الندية تمسح على التعب والنصب والمشقة ، ودعوة التيسير الإلهى على النبى ﷺ والمؤمنين ، وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم إليه ، وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير ، وما كان الله يريد لنبيه ﷺ أن يشق بهذا القرآن والقيام ... إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذى سيواجهه طوال ما بقى له فى الحياة .

وفى الحديث مودة وتطمين « إن ربك يعلم ... وطائفة من الذين معك ... » : إنه رآك .. قيامك وصلاتك ، أنت وطائفة من الذين معك قُبلت فى ميزان الله .. إن ربك يعلم أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع وتركت دفء الفراش فى الليلة القارسة ولم تسمع نداء المضاجع المغرى وسمعت نداء الله » أ هـ(١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ص ١٦٨ - ١٧٧ .

الآيـــة الخامســـة

قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾[1]

- قال الطبرى رحمه الله :

[يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ومن الليل فاسهر به بعد نومة يا محمد بالقرآن نافلة لك خالصة دون أمتك »

والتهجد : التيقظ والسهر بعد نومة الليل .

أما الهجود نفسه فالنوم كما قال الشاعر

ألا طـرقـتـنـا والـرفـاق هـجـود
فـبـاتـت بـعـلاّت الـنـوال تجود

وقال الحطيئة :

ألا طـرقت هِـنْـد الهنودِ وصحبتى
بِـحَوْران حَوْرَانِ الجنود هـجودُ

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ثم ذكر رحمه الله من قال ذلك من السلف وهم :

علقمة والأسود وعبد الرحمن بن الأسود والحجاج بن عمرو[2]

وعن الحسن : التهجد ماكان بعد العشاء الآخرة »][3]

- قال القرطبى رحمه الله :

[« ومن الليل » من للتبعيض ، فتهجد أى قم فتهجد به : أى بالقرآن

---

(١) الإسراء آية ٧٩ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٤١ ـ ١٤٤ مصطفى الحلبى ـ الطبعة الثانية .

(٣) حديث الحجاج بن عمرو فى سنده ابن لهيعة وفيه مقال [انظر حاشية ابن عابدين ص٤٦٠] .

والتهجد من الهجود وهو من الأضداد يقال هجد نام ، وهجد سهر على الضد .

قال الشاعر :

ألا زارت وأهـــل منى هـــجود
وليـــت خـيـــالها بمنى يـــعود

وهجد وتهجّد بمعنًى ، وهجّدته أى أنمته ، وهجّدته أى أيقظته .

والتهجد : التيقظ بعد رقدة فصار اسما للصلاة لأنه يتنبه لها . قال الحجاج ابن عمرو صاحب النبى ﷺ : « أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كله أنه قد تهجد ، إنما التهجد الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة ، كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ »(١)

● وقيل الهجود : النوم

يقال تهجد الرجل إذا سهر وألقى الهجود وهو النوم

وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوّب وتأثم وتحنث وتقذّر وتنجسّ إذا ألقى ذلك عن نفسه .

ومثله قوله تعالى ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ معناه تندّمون أى تطرحون الفكاهة عن أنفسكم وهى انبساط النفس وسرورها ،

والمعنى فى الآية : ووقتا من الليل اسهر به فى صلاةٍ وقراءة .

● قال العلامة أبو السعود محمد بن محمد العمادى :

« تهجد به » الضمير المجرور للقرآن من حيث هو لا بقيد إضافته إلى الفجر أو

---

(١) إسناده حسن : حسنّه ابن حجر فى تلخيص الحبير جـ ٢ رقم « ٢٤ » ولفظه فى تلخيص الحبير : « يحسب أحدكم إذا قام من الليل يصلى حتى يصبح أنه قد تهجد ، إنما التهجد أن يصلى الصلاة بعد رقدة ، ثم الصلاة بعد رقدة ، وتلك كانت صلاة رسول الله ﷺ . رواه ابن أبى خيثمة من طريق الأعرج عن كثير بن العباس عن الحجاج بن عمرو وفيه أبو صالح كاتب الليث وفيه لين ، ورواه الطبرانى وفى إسناده ابن لهيعة وقد اعتضدت روايته بالتى قبله . وقال الهيثمى فى الزوائد : رواه فى الكبير بإسناد صحيح ورجاله رجال الصحيح » أ هـ .

للبعض المفهوم من قوله تعالى ﴿ **ومن الليل** ﴾ أى فتهجد فى ذلك البعض على أنّ الباء بمعنى فى »

ونحى رحمه الله منحى القرطبى فى أن تهجد جاءت على صيغة التفعل التى تجيء للإزالة كالتحرج والتأثم.

- قال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى الفتح :ـ

[« قوله عز وجل ﴿ **ومن الليل فتهجد به** ﴾ زاد أبو ذر فى روايته «اسهر به» وفى المجاز لأبى عبيدة « قوله » فتهجد به : أى اسهر بصلاة.

وتفسير التهجد بالسهر معروف فى اللغة وهو من الأضداد حكاه الجوهرى وغيره ، ومنهم من فرق بينهما فقال : هجدت : نمت ، وتهجدت : سهرت حكاه أبو عبيدة وصاحب العين.

وقال ابن فارس : المتهجد المصلى ليلا

وقال كراع : التهجد صلاة الليل خاصة »][1] أ هـ.

- قوله ﴿ **نافلة لك** ﴾

قال ابن جرير الطبرى :

[وأما قوله نافلة لك : فإنه يقول : نفلا لك ، عن فرائضك التى فرضتها عليك.

واختلف فى المعنى الذى من أجله خص بذلك رسول الله ﷺ مع كون صلاة كل مصل بعد هجوده ، إذا كان قبل هجوده قد أدى فرائضه نافلة نفلا ، إذ كانت غير واجبة عليه.

فقال بعضهم : معنى خصوصيته بذلك : هو أنها كانت فريضة عليه وهى لغيره تطوع.

---

(١) فتح البارى ـ كتاب التهجد ـ جـ٣ ص ٥ ، ٦ طبعة السلفية ـ الطبعة الثانية.

وقيل : أقمناها نافلة لك أى فضلا لك ، من الفرائض التى فرضتها عليك عمّا فرضته على غيرك.

ثم روى رحمه الله عن ابن عباس « أن النافلة للنبى ﷺ خاصة أمر بقيام الليل وكتب عليه »[1].

ثم قال رحمه الله [بل قيل ذلك له عليه الصلاة والسلام لأنه لم يكن فعله ذلك يكفر عنه شيئا من الذنوب لأن الله تعالى كان قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكان له نافلة فضل فأما غيره فهو له كفارة وليس هو له نافلة .

ثم روى عن مجاهد قوله :

« النافلة » للنبى ﷺ خاصّة من أجل أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما عمل من عمل سوى المكتوبة فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل ذلك فى كفارة الذنوب ، فهو نوافل وزيادة والناس يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم فى كفارتها فليست للناس نوافل ثم رجحّ ابن جرير القول الأول فقال :

« وأولى القولين بالصواب فى ذلك القول الذى ذكرنا عن ابن عباس وذلك أن رسول الله ﷺ كان الله تعالى قد خصه بما فرض عليه من قيام الليل دون سائر أمته ، فأما ما ذكر عن مجاهد فى ذلك فقول لا معنى له ، لأن رسول الله ﷺ فيما ذكر عنه ، أكثر ما كان استغفارًا لذنوبه بعد نزول قول الله عز وجل ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية وأنزل عليه ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ... ﴾ فكان يعدّ له ﷺ فى المجلس الواحد استغفار مائة مرة ، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك فبيِّنٌ إذن وجه فساد ما قاله مجاهد »] أهـ ، اسند ابن جرير إلى قتادة ، نافلة لك : تطوعا وفضيلة لك .

(١) ضعّف ابن حجر هذا الإسناد كما سيأتى .

قال الإمام القرطبي فى تفسيره عن قوله تعالى ﴿ **نافلة لك** ﴾ : ـ

[أى كرامة لك : قاله مقاتل

واختلف العلماء فى تخصيص النبى ﷺ بالذكر دون أمته فقيل كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله ﴿ **نافلة لك** ﴾ أى فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت ـ أى القرطبى ـ وفى هذا التأويل بعد لوجهين : ـ

- أحدهما : تسمية الفرض بالنفل وذلك مجاز لا حقيقة .
- الثانى : قوله ﷺ « خمس صلوات فرضهن الله على العبد » وقوله تعالى ﴿ **هن خمس وهن خمسون لا يبدّل القول لدىّ** ﴾ وهذا نص فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس هذا لا يصح » .

ثم قال رحمه الله : ـ

« وقيل كانت صلاة الليل تطوعا منه ، وكانت فى الابتداء واجبة على الكل ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة ، كما قالت عائشة رضى الله عنها ، وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل من جهة الندب ويكون الخطاب للنبى ﷺ لأنه مغفور له ، فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة فى الدرجات ، وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع فى الفرض ، وقيل عطية لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق فى العبادة] (١) .

- قال العلامة أبو السعود :

[« نافلة لك » فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الأمة ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن صلاة الفجر مع تقدم وقتها على

---

(١) القرطبي ص ٣٩٢٤ ـ ٣٩٢٥ .

وقتها ، أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له ﷺ فى الدرجات كما قال مجاهد والسدى » .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح :

[والنافلة فى اللغة : الزيادة .

ـ ثم ساق قول الطبرى عن ابن عباس ومجاهد وقال :

إن رواية الطبرى عن ابن عباس إسنادها ضعيف »

ـ ثم تكلم عن رواية مجاهد التى ساقها الطبرى وابن أبى حاتم فقال الحافظ ـ إن اسنادها حسن » وعن قتادة كذلك .

ثم قال الحافظ ابن حجر « ورجّح الطبرى الأول(١) وليس الثانى(٢) ببيعد من الصواب »](٣) .

قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾

● قال ابن جرير : [« عسى من الله واجبة ثم قال : ـ

قال أكثر أهل العلم ذلك هو المقام الذى يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم] أ هـ

وعزاه رحمه الله إلى ابن عباس وحذيفة والحسن ومجاهد وسلمان وقتادة .

● قال القرطبى رحمه الله [اختلف العلماء فى كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود على قولين : ـ

أحدهما : أن البارىء تعالى يجعل من شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه أو بمعرفة وجه الحكمة .

---

(١) رواية ابن عباس .

(٢) رواية مجاهد وقتادة .

(٣) فتح البارى جـ ٣ ص ٦ .

(٤) تفسير القرطبى ٣٩٢٨ كتاب الشعب .

الثانى : أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارىء والمناجاة دون الناس فأعطى الخلوة به ومناجاته فى قيامه ، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلهم فيه درجة محمد ﷺ فإنه يعطى مالا يعطى أحد » .

● قال أبو السعود رحمه الله :

[﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ الذى يبلغك إلى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة و « محمودا » عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل »]

● **لطيفة للقشيرى :**

قال القشيرى رحمه الله : ـ

« الليل لأحد أقوام : لطالبى النجاة وهم العاصون ، من جنح منهم إلى التوبة ، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يجدون فى الطاعات ويسارعون فى الخيرات ، أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة »(١)

« فأهل المعرفة لم يطلبوا مؤنسا سواه وما طلبوا شيئا غيره كما قيل : ـ

أنتم سرورى وأنتم مشتكى حزنى
وأنتمُ فى سواد الليل سمّارى
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركم
وإن سكتُّ فأنتم عقد إضمارى(٢)

« ويقال الليل لأحد رجلين للمطيع والعاصى : هذا فى احتيال أعماله وهذا فى اعتذاره عن قبيح أفعاله »(٣)

---

(١) لطائف الإشارات .
(٢) التحبير فى التذكير ص ٦٨ دار الكاتب العربى .
(٣) لطائف الإشارات ٣٦/٤ .

• قال الشيخ سيد قطب : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ بهذه الصلاة وبهذا القرآن والتهجد به وبهذه الصلة الدائمة بالله فهذا هو الطريق المؤدى إلى المقام المحمود . وإذا كان الرسول ﷺ يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به وهو المصطفى المختار فما أحوج الآخرين إلى هده الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به فى درجاتهم فهذا هو الطريق وهذا هو زاد الطريق »(١) .

الآيـــــة السادســـــة

قال تعالى :

﴿ **ليسوا سوآء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾(٢)

سبب النزول :

• « عن ابن مسعود قال : أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة . قال : « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم قال : وأنزل الله هذه الآيات « **ليسوا سواء من أهل الكتاب ... حتى بلغ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين** »(٣)

• هذا وقد ورد للآية سبب آخر :

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٣ .

(٣) حديث حسن : قال مقبل بن هادى الوادعى فى الصحيح المسند من أسباب النزول ص ٢٧ - ٢٨ . أخرجه الإمام أحمد [جـ ٢ ص ٣٩٦ فى مسنده] وهو حسن كما قال الشوكانى جـ ١ ص ٣٧٥ نقلا عن السيوطى لأن عاصما فى حفظه شيء . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١ ص ٣١٢ رجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبى النجود وهو مختلف فى الاحتجاج به : وأخرجه ابن حبان فى صحيحه كما فى موارد الظمآن ص ٩١ وابن جرير جـ ٤ ص ٥٥ .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « لمّا أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة ابن سَعْيَة وأسيد بن سعية وأسد بن عُبيد ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا فى الإسلام قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا أشرارنا ، ولوكانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله فى ذلك من قوله « ليسوا سواء » إلى قوله « من الصالحين » (١) .

● [قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره

« واختار الإمام أبو جعفر ابن جرير الأول حيث قال بعد ذكره جملة من الأقوال :

غير أن الأولى بتأويل الآية قول من قال عنى بذلك تلاوة القرآن فى صلاة العشاء لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب فوصف الله أمة محمد ﷺ بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله » (٢)

« وأقول لا مانع من نزول الآية فى الجميع أو أنه تعدد نزولها والله أعلم » (٣)

وقال بمثل قول ابن عباس قتادة فقد قال : ليس كل القوم هلك لقد كان لله فيهم بقية .

● وقال ابن جريج : « أمة قائمة » : عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سلام أخوه ، وسعية بن مبشر وأسيد وأسد ابنا كعب .

● قال ابن جرير الطبرى :

[« سواء » فى هذا الموضع بمعنى التام والاكتفاء ، وقد بينا أن أولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال : قد تمت القصة عند قوله « ليسوا سواء » عن

---

(١) فى مجمع الزوائد ٧٣٢/٦ رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

(٢) نقلا عن أسباب النزول لمقبل ابن هادى الوادعى وعزاه إلى ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٣٩٧ . وانظر أيضاً تفسير الطبرى جـ ٧ ص ١٢٩ طبعة دار المعارف .

(٣) أسباب النزول ص ٢٨ لمقبل بن هادى الوادعى .

إخبار الله بأمر مؤمني أهل الكتاب وأهل الكفر منهم ، وأن قوله « من أهل الكتاب أمة قائمة » خبر مبتدأ عن مدح مؤمنهم ووصفهم بصفتهم على ما قاله ابن عباس وقتادة وابن جريج »[1] .

قوله تعالى ﴿ أمة قائمة ﴾

عن ابن عباس : « أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيّعوه »

عن قتادة : « أمة قائمة على كتاب الله وفرائضه وحدوده »

وعن . ع : « قائمة على كتاب الله وحدوده وفرائضه »

وهذه أولى الأقول عند ابن جرير .

وتأويل الكلام : من أهل الكتاب جماعة معتصمة بكتاب الله متمسكة به ، ثابتة على العمل بما فيه وما سنّ لهم رسوله ﷺ .

قوله تعالى ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ .

قال ابن جرير الطبرى : [يعنى بقوله « يتلون آيات الله » يقرأون كتاب الله آناء الليل ويعنى بقوله « آيات الله » ما أنزل فى كتابه من العبر والمواعظ . يتلون ذلك آناء الليل : فى ساعات الليل فيتدبرونه ويتفكرون فيه . أما آناء الليل : فساعات الليل وواحدها « إنيْ » كما قال الشاعر :

حلو ومر كعطف القِدْحِ مِرَّتُهُ
فى كل إِنْيٍ حذاه الليل ينتعل[2]

وقد قيل إن واحد الآناء « إنى » مقصور كما واحد الأمعاء « معى » فقال قتادة والربيع وعبد الله بن كثير : آناء الليل : ساعات الليل .

(١) تفسير الطبرى ١٢٠/٧ ، ١٢٢ .

(٢) الشاعر هو المتنخل الهذلى وقال ابن فارس : إنى وإنيان ٢٠٣١/١ والجمع آناء .

وقال السدى : جوف الليل .

وقال ابن مسعود : صلاة العتمة[1]

وقال منصور : فيما بين المغرب والعشاء .

قال ابن جرير : وهذه الأقوال التى ذكرتها على اختلافها متقاربة المعانى ، وذلك أن الله تعالى ذكره وصف هؤلاء القوم بأنهم يتلون آيات الله فى ساعات الليل وهى آناؤه ، وقد يكون تاليها فى صلاة العشاء تاليا لها آناء الليل ، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء ، ومن تلاها جوف الليل فكلٌ تال له ساعات الليل .

أما قوله تعالى ﴿ **وهم يسجدون** ﴾ : فإن بعض أهل العربية زعم أن معنى السجود فى هذه الموضع اسم للصلاة لا للسجود ، لان التلاوة لا تكون فى السجود ولا فى الركوع فكان معنى الكلام عنده : يتلون آيات الله آناء الليل وهم يصلون [2] .

وليس المعنى على ما ذهب إليه ، وإنما معنى الكلام : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل فى صلاتهم وهم فى ذلك يسجدون فيها فالسجود هو السجود المعروف فى الصلاة »[3] أ هـ .

قال القرطبى :

[من أهل الكتاب أمة قائمة

قال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذو أمة أى ذو طريقة حسنة وأنشد « وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

و « يسجدون » يصلون عند الفراء والزجاج لأن التلاوة لا تكون فى الركوع

(١) وهو أيضا قول مجاهد ورد فى زاد المسير.

(٢) هذه مقالة الفرّاء فى معانى القرآن .٢٣١/١

(٣) القرطبى ١٤١٨ ، ١٤١٩ .

والسجود نظير قوله « وله يسجدون » أى يصلون ، وفى الفرقان ﴿ **وإذاقيل لهم اسجدوا للرحمن** ﴾ وفى النجم ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾

وقيل يراد به السجود المعروف خاصة ، وسبب النزول يرده ، وأن المراد صلاة العتمة كما ذكرنا عن ابن مسعود ، فعبدة الأوثان ناموا حيث جن عليهم الليل ، والموحدون قيام بين يدى الله تعالى فى صلاة العشاء يتلون آيات الله ألا ترى لمّا ذكر قيامهم قال « وهم يسجدون » أى مع القيام أيضاً »] .

قال الزمخشرى فى الكشاف :

[أمة قائمة : مستقيمة عادلة من قوله : أقمت العود فقام بمعنى استقام . وعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن فى ساعات الليل مع السجود لأنه أبين لما يفعلون وأدل على حسن صورة أمرهم . وقيل عنى صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها .

وقوله « يتلون » و « يؤمنون » صفتان لأمة : أى أمة قائمة تالون مؤمنون وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين ، ومن الإيمان بالله »](1) أهـ .

الآيـــة السابعـــة

قال تعالى :

﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾(2)

● « أمن » قرأها الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائى بالتشديد ، وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « أَمَنْ هو » بالتخفيف على معنى النداء كأنه قال : يا من هو قانت .

---

(1) الكشاف ٤٥٦/١ طبع مصطفى الحلبى .

(2) سورة الزمر الآية ٩ .

قال الفرّاء : الألف بمنزلة « يا » تقول يا زيد أقبل ، وأزيد أقبل .

وحكى ذلك سيبويه وجميع النحويين كما قال أوس بن جُحْر :

أبنى لبُينَى لَسْتُمُ بيدٍ إلاّ يَدًا ليستْ لها عَضُدُ

وقال الآخر وهو ذو الرمة :

أدارا بُحِزْوَى هجتِ للعينِ عَبْرَةً
فماء الهوى ينفضّ أو يترقرق

فالتقدير عَلى هذا « قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » يا من هو قانت ، إنك من أصحاب الجنة . كما يقال فى الكلام : فلان لا يصلى ولا يصوم فيا من يصلى ويصوم أبشر فحذف لدلالة الكلام عليه .

وقيل إن الألف فى « أمن » ألف استفهام أى « أَمَنْ هو قانت آناء الليل أفضل أمن جعل لله أنداداً ، والتقدير الذى هو قانت خير .

ومنْ شدّد « أَمَّنْ » فالمعنى : العاصون المتقدم ذكرهم أخير أَمَّنْ هو قانت » فالجملة التى عادلت أم محذوفة .

وقال النحاس : و « أم » بمعنى « بل » و « من » بمعنى « الذى » والتقدير بل الذى هو قانت أفضل ممن ذكر » .

● وفى قانت عدة أوجه

١ ـ أحدها أنه المطيع : قاله ابن مسعود وابن عباس والسدى والنحاس ونافع وقتادة .

٢ ـ والثانى : أنه الخاشع فى صلاته قاله ابن شهاب .

والثالث : القائم فى صلاته : قاله يحيى بن سلاّم

والرابع : أنه الداعى لربه .

والخامس : طول القيام قال ابن عمر كان إذا سئل عن القنوت قال

. لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام »[1] وقرأ « أَمَّنْ هو قانت ... ساجدا وقائما : قال الحسن يريح رأسه بقدميه وقدميه برأسه[2] واختلف فى تعيين القانت هاهنا

فقال ابن عمر : هو عثمان رضى الله عنه . وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسر وقال يحيى بن سلاّم : إنه رسول الله ﷺ .

وقال ابن عباس فى رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقال الكلبى : صهيب وأبو ذر وابن مسعود ، وقيل أبو حذيفة بن المغيرة المخزومى » .

● قال ابن عباس : من أحب أن يهوّن الله عليه طول الوقوف يوم القيامة فليره الله فى ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة .

● قوله « يحذر الآخرة » قال ابن عباس : يحذر عقاب الآخرة . قال سعيد ابن جبير : أي عذاب الآخرة .

« ويرجو رحمة ربه » عن ابن عباس : « يرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة »[3]

● قوله تعالى ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾

قال الزجاج : أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى .

وقال غيره : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به فأما من لم ينتفع بعلمه ويعمل به فهو بمنزلة من لا يعلم .

● قال الزمخشرى :

---

(١) ابن جرير جـ ٢٣ ص ٠٠

(٢) مختصر قيام الليل ص ١٥

(٣) ابن جرير جـ ٢٣ ص ٢٠٠

« وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، وفيه ازدراء عظيم للذين يقتنون العلوم ويفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه »[1]

- قال العلاّمة أبو السعود :

« ساجدا وقائما » تقديم السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة[2]

- قال القاسمى فى « محاسن التأويل »

[« وفى الآية اشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم إذ عبر عنهم أولا بالقانت ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ليكون تأكيدا له وتصريحا بأن غير العامل كأنه ليس بعالم .

قال القاشانى : « وإنما كان المطيع هو العالم لأن العلم هو الذى رسخ فى القلب وتأصل بعروقه فى النفس بحيث لا يمكن صاحبه من مخالفته ، بل سيط باللحم والدم فظهر أثره على الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم فى حيز التخيل بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه فليس بعلم ، إنما هو أمر تصورى وتخيل عارض لا يلبث أن يزول سريعا لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغنى من جوع] »[3]

- قال الشيخ سيد قطب فى « الظلال » « أمن هو قانت ...

[هى صورة مشرقة مرهفة ... فالقنوت والطاعة والتوجه وهو ساجد وقائم ، وهذه الحساسية المرهفة وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وهذا الصفاء وهذه الشفافية التى تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى ، هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر .

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٣٩٠ .
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣٠٣/٤ .
(٣) محاسن التأويل ص ٥١٣١ .

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ... ﴾

قال رحمه الله « العلم الحق هو المعرفة .. هو إدراك الحق ، هو تفتح البصيرة .. هو الاتصال بالحقائق الثابتة فى هذا الوجود وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التى تزحم الذهن ولا تؤدى إلى حقائق الكون الكبرى ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس .

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة .. هذا هو القنوت لله .. وحساسية القلب .. واستشعار الحذر من الآخرة والتطلع إلى رحمة الله وفضله .. ومراقبة الله هذه المراقبة ألواجفة الخاشعة هذا هو الطريق .

ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى وبما يسمع وبما يجرب ، وينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات ، والتجارب الصغيرة ..

فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة والمشاهدات الظاهرة .. فهم جامعوا معلومات وليسوا بعلماء .. وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق .. المنتفعة بما ترى وتعلم .. التى تذكر الله فى كل شىء تراه وتلمسه ولا تنساه ولا تنسى يوم لقاه »][1]

الآيــــة الثامنــــة

قوله تعالى :

﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ... ﴾[2]

قال القرطبى رحمه الله :

[« السيما » : العلامة أى لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر.

قال شِمَر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل .

---

(١) الظلال .

(٢) سورة الفتح الآية الأخيرة .

وقال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى .

وقال سفيان الثورى : يصلون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك فى وجوههم .

وقال الضحاك : أما إنه ليس بالنَّدْب فى وجوههم ولكنه الصفرة .

وقال الضحاك : هو السهوم[1] إذا سهر الرجل من الليل أصبح مصفرا][2] .

وقال عكرمة : هو السهر يرى فى وجوههم[3] .

الآيــــة التاسعــــة

قال تعالى :

﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾[4] .

- قال ابن العربى رحمه الله :

« الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح ، ومنه سبحة الضحى »

- قال ابن جرير : [« هى الصلاة بالليل من أى وقت صلى .

وقال مجاهد « ومن الليل » من الليل كله .

ـ ثم ذكر أقوالا أخرى وقال بعدها : ـ

[« والقول الذى قاله مجاهد فى ذلك أقرب إلى الصواب وذلك أن الله جل ثناؤه قال ﴿ **ومن الليل فسبحه** ﴾ فلم يحدد وقتا من الليل دون وقت ، وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل »][5]

---

(١) هو تغير الوجه .

(٢) القرطبى ص ٦١١٣ ، ٦١١٤ .

(٣) مختصر قيام الليل ص ٢٠

(٤) سورة ق الآية ٤٠ .

(٥) تفسير الطبرى جـ ٢٦ ص ١٨٠ .

● قال سيد قطب : « اصبر وسبّح واسجد وأنت فى حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل المتوقع فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار لا يغفل عنه إلا الغافلون وهو الأمر الذى تدور عليه السورة كلها وهو موضوعها الأصيل »(١)

الآيـــة العاشـــرة

قال تعالى :

﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾(٢) .

● قال الطبرى رحمه الله :

[« وسبّحه ليلا طويلا » يعنى الصلاة والتسبيح](٣)

● قال القرطبى رحمه الله :

[« وسبحه ليلا طويلا » : يعنى التطوع فى الليل قاله ابن حبيب وقال ابن عباس وسفيان : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة .

وقيل : هو الذكر المطلق سواء فى الصلاة أو فى غيرها .

وقال ابن زيد : إن قوله « وسبحه ليلا طويلا » منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل هو ندب .

وقيل هو مخصوص بالصلوات الخمس .

وقول ابن حبيب حسن](٤)

● قال القاسمى رحمه الله :

---

(١) الظلال ص ١٦٩ .

(٢) الإنسان الآية ٢٦ .

(٣) الطبرى جـ ٢٩ ص ٢٢٥ .

(٤) القرطبى ص ٦٩٤١ .

[« ومن الليل فاسجد له » بالتهجد فيه ، « وسبحه ليلا طويلا » أى مقدارا طويلا نصفه أو زيادة عليه .

وفى هذه الأوامر ، مع الأمر فى أول « المزمل » وأمثالها ما يدل على العناية بقيام الليل والحرص عليه . والقصد حثه ﷺ على أن يستعين فى دعوة قومه والصدع بما أمر به ، بالصبر على أذاهم والصلاة والتسبيح كقوله ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ وقوله ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ وأمثالها][1]

• قال الشيخ سيد قطب فى « الظلال » ﴿ **فاسجد له وسبحه ليلا طويلا** ﴾

هذا هو الزاد حيث يلتقى العبد بربه فى خلوة ، وفى نجاء وفى تطلع وفى أنس تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة ، وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ، وترى عظمة التكليف وضخامة الأمانة فتستصغر ما لاقت وما تلاقى من أشواك الطريق هو الزاد الحقيق الصالح لهذه الرحلة المضنية فى ذلك الطريق الشائك .. هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل ، إنها حقيقة كبرى لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق ثم يقول رحمه الله عن قوله تعالى ﴿ **إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا** ﴾

[إن هؤلاء القريبى المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات ، هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون فى العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ... ثقيلا بتبعاته ... ثقيلا بنتائجه ... ثقيلا بوزنه فى ميزان الحقيقة][2] .

---

(١) محاسن التأويل ص ٦٠١٦ .

(٢) الظلال ج ٦ ص ٢٣٠ .

الآيـــة الحاديـة عشـر

قال تعالى :

﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ [(١)]

● قال القرطبي : « قالَ أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك .. قال حسّان : ليكون مفتتحا لعمله بذكر الله »

وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر . وذكره أيضاً القاسمى .

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾

قال القاسمى : [أى اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل][(٢)]

قال أبو السعود : [إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل][(٣)] .

قال سيد قطب : [يلقى ظلا فريدا .. أرق وأشف من كل ظل .. ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص ... فحسبنا أن نشير إلى ظلاله وأن نعيش فى هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به « وسبح ... » فعلى مدار اليوم .. عند اليقظة من النوم ... وفى ثنايا الليل .. وعند إدبار النجوم فى الفجر ... هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب ... والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب فكيف بقلب المحب الحبيب القريب][(٤)]

---

(١) الطور .

(٢) محاسن التأويل ص ٥٥٥١ .

(٣) تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ١٠٩ .

(٤) فى ظلال القرآن .

الآيــة الثانيــة عشــر

قال تعالى :

﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾[1]

قال محمد بن نصر رحمه الله : [قال عبد الله : إذا فرغت من المكتوبة فانصب فى قيام الليل وقيل فراغك بالليل][2]

وقال القرطبي : [قال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل][3] .

الآيــة الثالثـة عشــر

قال تعالى :

﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾[4]

- قال شيخ المفسرين الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله :

القانتين : المطيعين له — ثم نسب القول إلى قتادة —

— أما قوله « والمستغفرين بالأسحار » فقال أبو جعفر :

« اختلف أهل التأويل فى القوم الذين هذه الصفة صفتهم :

- فقال بعضهم : هم المصلون بالأسحار — وساقه بإسناده إلى قتادة .
- وقال آخرون : هم المستغفرون وذلك قول ابن مسعود وأسند رحمه الله إلى نافع أن ابن عمر كان يحيى الليل صلاة ثم يقول :

يا نافع هل أسحرنا ؟ فيقول لا ، فيعاود الصلاة ، فإذا قلت نعم ، قعد يستغفر ويدعو حتى يصبح .

---

(١) سورة ألم نشرح الآيتان ٧ ، ٨ .

(٢) مختصر قيام الليل ص ٢٠ .

(٣) القرطبي ص ٧١٩٨ — ٧١٩٩ .

(٤) آل عمران الآية ١٧ .

وأسند إلى جعفر بن محمد رحمه الله « من صلى بالليل ثم استغفر فى آخر الليل سبعين مرة كُتب من المستغفرين بالأسحار »

● وقال آخرون : هم الذين يشهدون الصبح فى جماعة وهو قول زيد بن أسلم .

قال ابن جرير : [وأولى هذه الأقوال :

قول من قال : هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها وأظهر معانى ذلك أن تكون مسألتهم إياه بالدعاء ، وقد يحتمل معناه تعرضهم لمغفرته بالعمل والصلاة غير أن أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء][1]

● قال الإمام القرطبي : [يقال سَحَر وسَحْر بفتح الحاء وسكونها .

وقال الزجّاج : من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثانى .

وقال ابن زيد : السحر هو سدس الليل الأخير .

ثم قال رحمه الله :
« واختلف فى معنى قوله ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾

فقال أنس بن مالك : هم السائلون المغفرة . وقال قتادة : المصلون .
ثم قال رحمه الله :
« الاستغفار مندوب إليه وقد أثنى الله على المستغفرين فى هذه الآية وغيرها فقال ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾

وقال رحمه الله « فهذا كله يدل عن أنه استغفار باللسان مع حضور القلب لا ما قال ابن زيد أن المراد بالمستغفرين الذين يصلون الصبح فى جماعة والله أعلم .

وقال لقمان لابنه : يا بنى لا يكون الديك أكيس منك ينادى بالأسحار

---

(١) تفسير الطبرى ٦/٢٦٤ ـ ٢٦٧ طبعة دار المعارف .

وأنت نائم » .. والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخارى عن شداد بن أوس وليس له فى الجامع غيره عن النبى ﷺ قال : « **سيد الاستغفار أن تقول :**

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ـ قال ـ ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمس فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة »(١)](٢)

● قال العلامة أبو السعود محمد بن محمد العمادى فى تفسيره :

[قال مجاهد وقتادة والكلبى : أى المصلين بالأسحار

وقال الحسن رحمه الله : مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا .

وقال أيضا «كانوا يصلون فى أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار »

وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، إذ العبادة حينئذ أشق ، والنفس أصفى ، والروح أجمع لا سيما للمتهجدين .

وتوسط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكما لهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها](٣)

● قال الألوسى رحمه الله فى تفسيره :

---

(١) أخرجه البخارى والنسائى وأحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك انظر صحيح الجامع جـ ٣ ص ٢١٩ حديث رقم ٣٥٦٨ طبع المكتب الإسلامى .

(٢) تفسير القرطبى ٢/١٢٨٠ ـ ١٢٨٢ .

(٣) ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ١ ص ٢٢١ مطبعة محمد على صبيح .

[وقول أبي حيان : لا نعلم أن العطف فى الصفة بالواو يدل على الكمال ردّه الحلبى بأن علماء البيان علموه وهمُ همُ][1]

● قال ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير »

[قال إبراهيم بن السرى : السحر : الوقت الذى قبل طلوع الفجر ، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر .

ثم قال رحمه الله :

وصفهم الله بهذه الصفات « الطاعات » ثم وصفهم بأنهم لشدة خوفهم يستغفرون][2]

رحمة الله على من كانت هذه صفاتهم أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم .

● قال الحافظ ابن حجر العسقلانى :

[إن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار ويشهد له قوله تعالى ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ ، وإن الدعاء فى ذلك الوقت مجاب ، ولا يعترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين لأن سبب التخلف وقوع الخلل فى شرط من شروط الدعاء كالاحتراز فى المطعم والمشرب والملبس أو الاستعجال أو بأن يكون الدعاء بإثم أو قطيعة رحم ، أو تحصل الإجابة ويتأخر وجود المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله][3]

فائـــدة لغوية :

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطى فى تفسيره :

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسي جـ ١ ص ١٠٣ طبعة دار الفكر .

(٢) زاد المسير لابن الجوزى ٣٦١/١ طبع المكتب الإسلامى .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى كتاب التهجد جـ ٣ ص ٣٨ ، ٣٩ طبع السلفية ـ الطبعة الثانية .

[السَّحَر والسَّحْر بفتح الحاء وسكونها آخر الليل .

وقال الزجاج وغيره : وهو قبل طلوع الفجر . وهذا صحيح لأن ما بعد الفجر هو من اليوم لا من الليلة .

وقال بعض اللغويين : السحر من ثلث الليل الآخر إلى الفجر والحديث فى التنزل وهذه الآية فى الاستغفار يؤيدان هذا . وقد يجىء فى أشعار العرب ما يقتضى أن حكم السحر يستمر فيما بعد الفجر نحو قول إمرىء القيس :

يُعَلُّ بها بردُ أنيابها إذا طَرَّبَ الطائر المستحر[1]

ويقال أسحرواستحر إذا دخل فى السحر ، وكذلك قولهم : نسيم السحر يقع لما بعد الفجر وكذلك قول الشاعر :

تجد النساء حواسرا يندبنه
قد قمن قبل تبلج الأسحار[2]

فقد قضى أن السحر يتبلج بطلوع الفجر .

ولكن حقيقة السحر فى هذه الأحكام الشرعية من الاستغفار المحمود ومن سحور الصيام ، ومن يمين لو وقعت ، إنما هى من ثلث الليل الباقى إلى الفجر][3] .

قال القشيرى فى « لطائف الإشارات » ١ / ٢٢٤ - ٢٢٥ .

[القانتين : بنفوسهم بالاستقامة فى محبة الله..

والمستغفرين : عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم فى الله . ويقال :

---

(٢) استحر الطائر : غرد بسحر ، يُعل به : أى يسقى به ، إذا طرّب : إذا صوّت الديك . أى هى طيبة ريح الفم فى الوقت الذى تتغير فيه الأفواه ، وإنما تتغير الأفواه بعد النوم ، ويروى « إذا صوّت » انظر الديوان ١٥٨ ، واللسان ١٤/٦ والبحر ٣٩٨/٢ .

(٢) البيت للربيع بن زياد فى مالك بن زهير العبسى أنظر ديوان الحماسة ٢٦/٣ .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٢٦٢/٢ - ٢٦٣ تحقيق أحمد صادق الملاح طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

« الصابرين » بقلوبهم ، و « الصادقين » بأرواحهم ، و « القانتين » بنفوسهم ، و « المستغفرين » بألسنتهم .

ويقال :

« الصابرين » على صدق القصود ، و « الصادقين » فى العهود ، و « القانتين » بحفظ الحدود ، و « المستغفرين » عن أعمالهم وأحوالهم .

ويقال :

« الصابرين » الذين صبروا على الطلب ، ولم يتعللوا بالهرب ، ولم يحتشموا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب ، صبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم شىء من الدنيا .

و « الصادقين » الذين صدقوا فى الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا .

و « القانتين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، الذين لازموا الباب ، وداموا على تجرع الاكتئاب ، وتركو المحاب .

و « المنفقين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، ثم جادوا بميسورهم من الأموال ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظ لهم فى العاجل »]

● قال الشيخ سيد قطب :

[والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقى ظلالا رفافة ندية عميقة ، ولفظة الأسحار فى ذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر ، الفترة التى يصفو فيها الجو ويرق ويسكن ، وتترقرق فيها خواطر النفس وخلجاتها الدفينة ، فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة فى عالم النفس وفى ضمير الوجود سواء .

هؤلاء الصابرون الصادقون القانتون المنفقون المستغفرون بالأسحار هم

رضوان من الله وهم أهل لهذا الرضوان ... ظله ومعناه »[1] .

الآيــة الرابعـة عشـر

قال تعالى :

﴿ وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ﴾[2]

هذى وجوه المؤمنين من أهل الجنة فى الدنيا والآخرة .. وجوه ناضرة .

- قال القرطبى رحمه الله :

« وجوه يومئذ مسفرة » أى مشرقة مضيئة قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهى وجوه المؤمنين

« ضاحكة مستبشرة » أى مسرورة فرحة .

« مستبشرة » أى بما آتاها الله من الكرامة .

وقال عطاء الخراسانى : « مسفرة » من طول ما اغبرّت فى سبيل الله جل ثناؤه ذكره أبو نعيم ، والضحاك : من آثار الوضوء .

ابن عباس : من قيام الليل ، لما روى فى الحديث « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » يقال أسفر الصبح إذا أضاء][3] .

الآيــة الخامســة عشـر

قوله تعالى :

﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾[4]

---

(١) ظلال القرآن ٥٩/٣ عيسى الحلبى الطبعة الأولى .

(٢) القرطبى ٧٠١٦/١ ، ٧٠١٧ .

(٣) قال العقيلى : حديث باطل وقال العراقى لا أصل له .

(٤) الفرقان آية رقم ٦٢ .

قال القرطبي رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾

قال أبو عُبيدة : الخِلفة كل شيء بعد شيء ، وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه .

ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سُلْمى :

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً
وأَطْلاَؤُها يَنْهَضْنَ من كُلِّ مجثِمِ[1]

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام ، يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج .

قال مجاهد « خِلْفَةً » من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود ، والأول أقوى وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ، أي جعل الليل والنهار ذوى خلفة أي اختلاف .

﴿ لمن أراد أن يَذَّكَّر ﴾ أي يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثا ، فيعتبر فى مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه فى العقل والفكر والفهم . وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل .

● قال ابن العربي : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حيا عالما ، وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة ، إذ الكمال للأوّل الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر فى طاعة الله فليفعل ، ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه

---

(١) العين بكسر العين جمع أعين وعيناء وهى بقر الوحش سميت بذلك لسعة أعينها . والاطلاء جمع طلا وهو ولد البقرة وولد الظبية الصغير. المجثم : الموضع الذى يقام فيه .

يبقى له من العمر عشرون سنة . ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثى عمره فى لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر فى لذةٍ باقية عند الغنىّ الوفىّ الذى ليس بعديم ولا ظلوم .

المسألة الثالثة : الأشياء لا تتفاضل بأنفسها ، فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، وإنما يقع التفاضل بالصفات . وقد اختلف أىّ الوقتين أفضل ، الليل أو النهار وفى الصوم غنية فى الدلالة ، والله أعلم ، قاله ابن العربى .

قلت : والليل عظيم قدره ، أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه. **فقال**: « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » وقال « قم الليل » ومدح المؤمنين على قيامه فقال « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » وقال عليه الصلاة والسلام « **والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار** » ، « وصلاة الرجل فى جوف الليل » وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء ، وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى] .

الرابعة : قرأ حمزة وحده « يَذْكُر » بسكون الذال وضم الكاف ، وهى قراءة وثاب وطلحة والنخعىّ . وفي مصحف أبىّ « يتذكّر » بزيادة تاء . وقرأ الباقون « يَذَّكَّرُ » بتشديد الكاف . ويَذْكُر ويَذَّكر بمعنى واحد ، وقيل : معنى « يذْكُر » بالتخفيف أى يذكر ما نسيه فى أحد الوقتين فى الوقت الثانى ، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها »

« شكورا، هذا الشكور على أنه جعلهما قواما لمعاشهم. وكأنهم لمّا قالوا « وما الرحمن » قالوا : هو الذى يقدر على هذه الأشياء »][1] أهـ كلام القرطبى .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلى :

---

(١) القرطبى جـ ٧ ص ٤٧٨١ ــ ٤٧٨٣ .

[« روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن مالك بن دينار قال : كان عيسى عليه السلام يقول : إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما وكان يقول : اعملوا الليل لما خلق له ، واعملوا النهار لما خلق له .

وعن الحسن أنه كان يقول يا ابن آدم اليوم ضيفك ، والضيف مرتحل يحمدك أو يذمك وكذلك ليلتك .

وبإسناده عن بكر المزني أنه قال : « ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا ينادي : ابن آدم اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي ، ولا ليلة إلا تنادي ابن آدم اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي .

وعن داود الطائي أنه قال : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زادا لما بين يديها فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك ، واقض ما أنت قاض من أمرك فكأنك بالأمر قد بغتك .

وفي تفسير عبد بن حميد وغيره من التفاسير المسندة عن الحسن في قول الله عز وجل ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ..** ﴾الآية قال :

من عجز بالليل كان له من النهار مستعتب ، ومن عجز بالنهار كان له من الليل مستعتب .

وعن قتادة : قال : إن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار ، وينسى بالنهار ويذكر بالليل .

قال قتادة : فأدوا إلى الله من أعمالكم خيرا في هذا الليل والنهار فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم ، يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة » أ هـ[1]

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص ٧ ، ٨ .